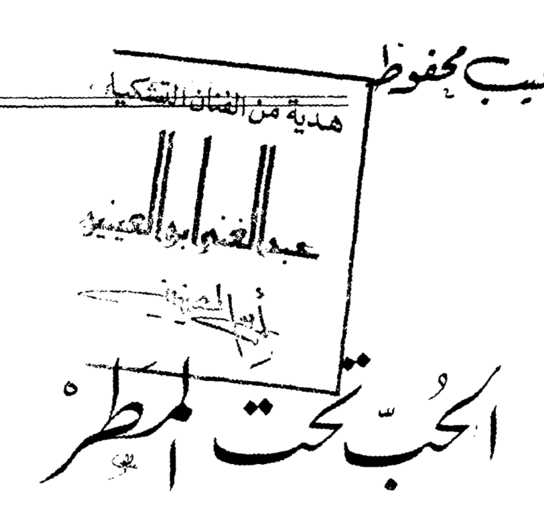


حب تحت المطر
نجيب محفوظ

الحب تحت المطر

نجيب محفوظ



الحُبّ تحت المطر

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي "الفجالة"

— ١ —

تيار من الخلق لا ينقطع . يتلاطم فى جميع الاتجاهات [illegible] عنه أصوات من شتى الطبقات . ويشكل فى جملته خليطا من ألوان الطيف . سارا جنبا إلى جنب صامتين . هى فى فستان بنى قصير وشعرها الأسود يتهدل حول الرأس وفوق الجبين . وهو بقميصه الأزرق وبنطلونه الرمادى وشعره المرسل إلى اليمين . فى عينيها نظرة عسلية مستطلعة . وفى عينيه جحوظ خفيف ولكنه يوائم تماما أنفه الحاد المستقيم . وبقدر ما استسلمت للمشى كان هو يتحين الفرص . قال :

ـ الزحام لا يطاق .

فتمتمت باسمة :

ـ ولكنه مسل للغاية .

واعتبر ردها مناورة لطيفة ليس إلا . بل استجابة لرغبته القلبية . وأشار بذراعه المفتولة إلى كافيتريا هارون فمالت معه إليها بلا تردد . ومضيا إلى الحديقة الخلفية فاختارا مجلسا شبه خال تحت تكعيبة اللبلاب . وتفحصا المكان ، وتبادلا نظرات . استشعر دون شكاية حرارة الجو المشبعة بالرطوبة . وطلب قدحين من شراب الليمون . وكان يتوثب للكلام فيما يهمه

ولكنه قال لنفسه فليأت الكلام فى وقته وبطريقة عفوية فهذا أفضل . قال :

ــ مضى عهد الجامعة كحلم .

فقالت تكمل جملته :

ــ بمتاعبه ومسراته .

ــ وما هى إلا أشهر حتى يتسلم كل منا وظيفته .

فأحنت رأسها بالإيجاب ثم تساءلت :

ــ ولكن إلى أين تمضى الدنيا ؟

هذا السؤال الذى يرتطم به فى كل مكان وزمان . إلى أين ؟ حرب أم سلام ؟ . وطوفان الشائعات ؟ .

ــ لتمض إلى حيث تشاء .

وشربا الليمون حتى دمعت عيناهما ثم سألها :

ــ وما أخبار أخيك إبراهيم ؟

ــ بخير ، رسائله قليلة ، ولكنه يجىء من الجبهة مرة كل شهر ..

وكأنما أرادت أن تعتذر عنه فقالت :

ــ مرزوق .. لو لم تكن وحيد أبويك لاستدعيت مثله إلى الجندية ..

فلم يعلق بحرف . واستسلما معا للصمت . وعاوده التوثب للكلام فى موضوعه فقال ضاحكا :

ــ لا يجوز أن نضفى البراءة على اجتماعنا أكثر من ذلك ..

فلعبت فى عينيها نظرة مرحة وقالت :

ـ إذن فاجتماعنا غير برىء !

فقال بجديه :

ـ أعنى الموضوع الذى حدثتك عنه أختى سنية ..

فقالت بحذر :

ـ لا تنقصك الصديقات فيما أعلم ؟

فقال بجديه أكثر :

ـ نحن نتحرك بدافع اللهو كثيرا ثم يجىء وقت فلا يقنعنا إلا الحب الحقيقى ..

ـ الحقيقى ؟ !

ـ هذا ما اعنيه تماما يا عليات ..

فترددت قليلا ثم تساءلت :

ـ آلا يعد الزواج فى حالتك سابقا لأوانه ؟

فقال بازدراء :

ـ ذلك من كلام السلف ولكن لا أهمية للوقت ما دمنا نسيطر على مصيرنا ..

فسألته باهتمام :

ـ وهل أنت واثق من مشاعرك ؟

فرمقها بحنان وهو يقول :

ـ من عيـــوبى الجوهرية أننى لا أحسن التعبـــير عن مشاعرى ، كم مرة التقينا ؟ ، ومع ذلك فلم أنوه بجمالك أو ثقافتك مرة واحدة !

ولما لم تنبس سألها بحرارة :

ـ لم لا تتكلمين ؟

فقالت وهي تتنهد :

ــ لا أدرى ، كأنني خائفة ..

فقال برقة :

ــ الحق أني أحبك كأعز شيء فى الدنيا .

فعمغمت باسمة :

ــ هذا أفضل ..

فضحك بسرور وقال :

ــ عندى ما هو أجمل ..

واعترفت قائلة :

ــ والحق أنى لم أكن سلبية فى المعركة وأنت تعلم ذلك ..

فاستخفه الطرب وقال :

ــ اعتبريني مجنونا بك !

فخفضت بصرها وهمست :

ــ وأنا سعيدة كما يجدر بإنسان يبادلك مشاعرك ..

فاجتاحه السرور والإلهام وقال :

ــ ما كان أحب إلى أن أتلقى هــذه السعادة فى مكان لا يشاركنا فيه أحد !

وضحكا معا . وصمتا وهما يتبادلان النظرات . واقترح عليها الذهاب إلى حديقة ما . وقاما وهى تقول :

ــ لا تنس أنه توجد فى الطريق متاعب !

فهز منكبيه قائلا :

ــ أعتقد أنها متاعب لا تذكر بالقياس إلى متاعب العالم !

ـ ٢ ـ

انتصف الليل فخلت مقهى الانشراح بشارع الشيخ قمر من زبائنهـا . لم يبق من عمالهـا إلا عم عبـده بدران النادل وعشماوى ماسح الأحذية . ومضى عشماوى بهيكله الضخم الخاوى إلى الخارج فجلس القرفصاء جنب مدخل المقهى ينظر إلى لا شيء بعينيه العمشاوين . أما عم عبده فاقتعد كرسيا وسط المدخل وأشعل سيجارة . وبعد ربع سـاعة مرقت سـيارة مارسيدس بيضاء أمام المقهى ثم وقفت على مبعدة يسيرة لصق الطوار فرفع عشماوى رأسه نحوها وهو يقول :

ـ الأستاذ حسنى حجازى .

وقام عم عبده بدران ليستقبل القادم الذى أقبل بجسمه الطويل النحيل ورأسـه الضخم رافلا فى بدلة بيضـاء آية فى الأناقة . حيا الرجلين باسميهما واتخذ مجلسه على حين مضى عم عبده ليجيئه بالنارجيلة وزحف عشماوى ناحيته ليمسح حذاءه . ولأن حسنى حجازى هو زبون ما بعد منتصف الليل الوحيد ـ كلما سمح له الوقت ـ فقد نشأت بينه وبين الرجلين علاقة حميمة وحوار متبادل . والحق أنه يأنس إلى وقار عم عبده ـ فى الستين من عمره ـ ويعجب ببدلة عمله العتيقة وصلعته

المستديرة الضاربة للاحمرار ونظرة عينيه الثقيلة الطيبة . وأيضا فهو يعجب كثيرا بعشماوى الذى لا يعرف له سن وإن قدّره بما بين السبعين والثمانين ، ويثيره منظر هيكله الضخم الخاوى كحفرية متبقية من زمن الفتونة ، ويحيى بكل إجلال صموده فى معترك الحياة رغم هوان الصحة والسمع والنظر وزوال المجد . وكان عم عبده يعنى بنارجيلة الأستاذ عناية خاصة ، لا من أجل البقشيش فحسب ، ولكن لعلمه بأنها السر وراء زيارات الأستاذ للانشراح بالإضافة إلى حنينه إلى مسقط رأسه بشارع الشيخ قمر . والأستاذ حسنى فى الخمسين ولكنه يفيض بحيوية عجيبة ولم تشب له شعرة واحدة ، ويبدو أنه يسعد حقيقة بوجوده فى المقهى المتواضع بين صاحبيه وفى مناجاته الطويلة مع النارجيلة . وكالعادة بدأ الحديث بتبادل النيران فى الجبهة ، وتساؤلات عن الغد القريب والبعيد ، وكلمات رقيقة بقصد الاطمئنان عن إبراهيم ابن عم عبده وغيره من المجندين من أهل درب الحلة موطن عشماوى . وكان يعتبر عشماوى نموذجا لجماهير غفيرة لا يتاح له الاتصال بها هى المتحمسة حقا للقتال بلا قيد ولاشرط ، وبلاخوف ، وبلا اكتراث للعواقب . وقال لنفسه علام يخافون وهم لا يملكون إلا الكرامة والأسطورة . وقال لنفسه أيضا إن المعذبين حقا هم الوطنيون الصادقون . ولما فرغ عشماوى من مسح الحذاء اقترب عم عبده بدران من مجلس الأستاذ ومال نحوه قليلا وهو يقول :

ـــ عليات ابنتى طلب يدها شاب من زملائها .

فانبعث فى صدر الأستاذ اهتمام حقيقى وقال :

ــ مبارك يا عم عبده .

فقال برضى وفى غير ما حماس :

ــ الستر مطلوب ولكن العريس ــ مثلها ــ لم يتوظف بعد !

ــ هكذا تجرى الأمور فى هذه الأيام .

ــ ولكنى رجل مثقل بالأعباء والابن الوحيد الذى أتمّ دراسته مجند فى الجبهة كما تعلم .

فقال حسنى حجازى بثقة :

ــ ابنتك متعلمه وهى تدرك ذلك كله ، وماذا يقال عن العريس ؟

فقال الرجل بامتعاض :

ــ على الحديدة . حال أبيه كحالى ، وهو كاتب فى محل تجارى ..

ــ جنّد ؟

ــ معفى لأنه وحيد أبويه .

ثم مستدركا :

ــ بقية ذريته بنات وإحداهن زميلة وصديقة حميمة لعليات.

وهنىء الأستاذ مليا بتدخين النارجيلة ومضى يقول لنفسه إن النادل الطيب يعيش أيضا فى أسطورة ، وأن الحقيقة خليقة بأن تصعقه . وأن أخلاقنا غير حقيقية وهى تقوم على الريح . وقال لعم عبده :

ـ توجد فتيات ذكيات ، يفضلن الاقتران بالكهول الأغنياء طلبا للاستقرار في الحياة ..

فهز الرجل رأسه في حيرة وقال :

ـ لا أدرى

ـ على أي حال فإن كريمتك ليست واحدة منهن .

ـ ربنا معها .

فقال الأستاذ حسنى وهو يدارى بسمة ساخرة :

ـ آمين .

فقال عم عبده بدران بحماس طارىء :

ـ عليات فتاة عالية الهمة ، سعت إلى الرزق حتى وهى طالبة ، واكتسبت نقودا لا بأس بها من الترجمة فاستطاعت أن تظهر في الجامعة بالمظهر اللائق الذى لم يكن في مقدورى توفيره لها .

ـ فتاة عالية الهمة حقا ..

ـ ولكن هل ادخرت من النقود ما يكفى لتجهيز ولو حجرة واحدة ؟

ـ هذه هي المسألة

ـ أما هى فلا يهمها ذلك على الإطلاق ..

فضحك حسني حجازي وقال :

ـ جيل يستحق التحية والإكبار

وسرحت خواطره إلى شقته الأنيقة بشارع شريف فقال



فضحك حسنى حجازى وقال : جيل يستحق التحية والاكبار

لنفسه بأن الصراع الحقيقى فى هذه الحياة هو ما يقـوم بين الحقائق والأساطير . وقال له عم عبده :

ــ سعادتك لم تفكر فى الزواج أبدا .. ؟

ــ أبدا .

ثم أشار إليه بسبابته محذرا وقال :

ــ ولم أندم على ذلك قط .

وتذكر كيف سأله صحفى فى ريبورتاج عابر بالاستديو ــ ضمن مجموعة من العاملين فى فيلم ــ سأله عن فلسفته فى الحياة ، وكيف بهت ولم يحر جوابا .

ولكن أهو حقا بلا فلسفة ؟ !

ــ ٣ ــ

ثمينة جدا الساعات القلائل التى يقضيها إبراهيم عبده فى القاهرة . تأبطت شقيقته عليات ذراعه وهو فى بذلته العسكريه ومضيا يشقان الطريق وسط خضم هائل من البشر تحت فيض متدفق من الأضواء . وكان يشبهها لدرجة محسوسة ، بعينيه العسليتين خاصة ، ورغم ما بأنفه من فطس خفيف وما فى شفتيه من دســامة ، وما فى بنيانه من متانة . وكان يلتهم كل شىء بحواسه ، ويتلقى سيلا متواصلا من المشاعر ، ويدخل أحيانا

فى وجود غريب عابر بين الواقع والحلم ، أو يتردد مع خواطره بين الواقع والحلم . وسألته أخته :

ـ كيف تجد الليلة صدمة الانتقال من باطن الأرض المزلزله بالانفجارات إلى دنيا القاهرة الثملة بالصخب ؟

وكانت تستعيد كلماته القــديمة بالحرف ، ولكنه أجاب بلا اكتراث :

ـ أصبحت عادة .

ـ وامتعاضك العتيد !

فأجاب بنفس اللهجة :

ـ أصبح عادة أيضا .

ثم وهو يبتسم :

ـ الموت نفسه أصبح عادة يومية .

فسألته برقة وهى تتفادى من شاب ينطلق كالصاروخ :

ـ كيف تريد لنا أن نعيش ؟

ـ لا أريد تغيير نظام الكون ، أريد فقط أن أشعر بأننى أستقبل بين أصدقائى استقبال العائد من جبهة مشتعلة فى سبيل الدفاع عن الوطن .

فلاذت بالصمت فمضى هو يقول :

ـ لا أعنى تكريما أو هتافا ، أطمع فقط فى شىء من الاهتمام والجدية .

ـ ولكن لا حديث للناس إلا الحرب !

ـ ... دون المستوى المطلوب ...

فقالت بعد تردد :

ـ لهم بعض العذر !

ـ اللعنة .. مهما كان ، مهما يكن ، فالموت شيء حقيقى ..

فضغطت على ذراعه وقالت :

ـ لا تسمح لشيء بأن يفسد عليك ساعة طيبة ..

ثم قالت بنبرة جديدة :

ـ نتناول بعض الشطائر ثم نذهب إلى السينما .

فلم يعارض ولكنه قال :

ـ غريب أننى لم أعرف خطيبك مرزوق من قبل ..

ـ لا يعجبك ؟

ـ شكله لطيف ولكن أخته ألطف !

فنظرت إليه باهتمام وهما يقفان فى ظل عند مشرب قهوة على الناصية وتساءلت :

ـ سنية ؟

ـ أجل ، أظنها صديقتك ؟

ـ جدا ، سبقتنى بعام ، وهى موظفة بالإصلاح الزراعى . الظاهر أنها أعجبتك ؟

فقال بيقين :

ـ جدا ..

فضحكت عليات وتساءلت :

ـ حب من أول نظرة ؟

فقال ضاحكا :

ــ أعتقد انى نلت منها مائة نظرة ..
ــ كل ذلك من وراء ظهورنا ؟
ــ المهم ...
ولما سكت تساءلت :
ــ المهم ؟
ــ أهى لائقة كزوجة ؟
ــ ما شروط اللياقة فى نظرك ؟
ــ نحن لما تعلمين أسرة محافظة !
ــ أعترف بأنك متشبع جدا بأبى .
ــ تهمنى الأخلاق .
فلفتته إلى إعلان سينمائى فاضح يوشك أن يكون مضاجعة وقالت محذرة :
ــ اخفض صوتك ..
ــ أنت نفسك محافظة فى الناحية الأخلاقية على الأقل ..
ــ أشكر لك حسن ظنك ..
ــ والآن خبرينى ؟
فقالت بضيق :
ــ ما أعرفه عنها يشهد بأنها ممتازة .
ــ لا أحب أن أقلق .
فضحكت ولكنها قالت بعطف :
ــ لا يجوز أن يقلق جندى لأسباب تجيئه من المدينة !
وانطفأت الأنوار بغتة كأنما ماتت بسكتة فغرق الطريق فى

ظلام دامس . وهللت هتافات شابة مهرجة فى عبث ومجون ، وصرصرت آلات التنبيه بالسيارات . توترت أعصاب إبراهيم ، واجتاح رأسه أصداء أوامر خاطفة بالاستعداد والقبـوع فى المواقع ، ولكن جاءه صوت عليات ناعما وهى تقول :

ــ تنطفىء الأنوار كثيرا لأسباب مجهولة .

فاسترد راحته ، وقبض على يدها فتراجع بها حتى لامس ظهراهما جدار المشرب ، وسألها :

ــ أيطول ذلك ؟

ــ من دقيقة لساعة . وأنت وحظك !

وسرعان ما آلفت عيناه الظلام فرجع يسألها :

ــ بم تنصحينني ؟

ــ ننتظر حتى يعود النور .

ــ أعنى سنية !

فضحكت قائلة :

ــ سنية ! .. تزوجها إن كنت تحبها ..

ــ الحب ليس المشكلة !

فسألته ساخرة :

ــ بم نحكم عليك لو أخذنا بماضيك ؟

ــ ليس الرجل كالمرأة !

فضربت الأرض بقدمها غيظا ولكنها لم تنبس ، فعاد يقول :

ــ لا تريدين أن تعطيني رأيا قاطعا ..

فقالت بحدة :

ـ قلت إنها ممتازة فتزوجها إن كنت تحبها .

ـ سأقابلها صباح الغد ..

فضحكت عليات وتساءلت :

ـ لماذا يطفئون الأنوار إذا كانت أمهر المؤامرات تدبر فى رابعة النهار ؟ !

ـ ٤ ـ

لم يكن الجو شديد الحرارة ولكن أشعة الشمس تدفقت حامية لاسعة ، وترامت تحت دفقاتها حديقة الأسماك عارية أو شبه عارية . وكانا أول قادمين . تمشيا بلا هدف وإبراهيم يقول لنفسه : مثل آدم وحواء ، مثل آدم وحواء قبل الخطيئة ، وابتسم لخواطره وهو لا يدرى فضبطت سنية ابتسامته وسألته بحياء :

ـ ترى ماذا يضحكك ؟

فارتبك ثانية ولكنه قال :

وبسط راحتيه لأشعة الشمس وقال :

ـ يوجد مجلس تحت الجبلاية

وذهبا صوب الجبلاية تفغم أنفيهما رائحة نباتية تزفرها

الأعشاب المخضلة برشاش الماء . وكانت متوسطة القامة أو دون ذلك بقليل فلم تجاوز قمة رأسها الكستنائي منكبه ولكنها كانت متناسقة التكوين وذات عينين خضراوين صـــافيتين . وجلسا متجاورين فوق أريكة من جذع النخيل . قال :

ـ حضورك منّة عظيمة .

فقالت ببساطة :

ـ لسنا غرباء فنحن أسرة واحدة .

وأضفى القبو على الجو قتامة ، وجرت في ثناياه نســمة رطيبة كحال الأماكن التي لا تزورها الشمس . وكانت أعينهما تكلمت كثيرا أمس فلم يشعرا في جلستهما بغربة مطلقة . ولاحظ أنها تنظر إلى بدلته العسكرية بحب استطلاع فسألها :

ـ ليس لك أهل مجندون ؟

فهزت رأسها بالنفي فقال :

ـ إنها لا تمنع من التفكير في المستقبل كأننا نعيش أبدا !

فقالت بعذوبة وحرارة :

ـ الأعمار بيد الله وحده .

فابتسم في تسليم وارتياح . وقال لنفسه إنه لا يمكن اقتحام الموضوع بلا تمهيد ، ولا يجوز ـ في ذات الوقت ـ أن يطول التمهيد ما دامت فرصة اللقاء لن تتجدد قبـــل شهر كامل إن وجدت أصـــلا ! . ولعلها حامت حول الأفكار نفسها ولكنها وجدت مخرجا فقالت :

ـ الحياة هناك شاقة بلا شك ؟

وامتن لسماع ملاحظتها التى لا يسمعها عادة بعيدا عن نطاق أسرته فقال :

ــ فوق ما تتصورين !

ــ وكيف تتحملونها ؟

فقال بصدق :

ــ أصبحت أومن بأن الإنسان يستطيع أن يعيش فى الجحيم نفسه وأن يألفه فى النهاية ..

ثم نظر إليها باهتمام وقال :

ــ ولا يمنعه ذلك من التطلع إلى النعيم والسعادة .

فابتسمت ، وتورد وجهها القمحى ، وتبدت سعيدة ، فقال لنفسه إنها ليست طفلة ولا ممثلة ولكنها قوية الشخصية والأخلاق ، وسألته :

ــ ترى هل تقوم الحرب من جديد ؟

فقال وكأنه لم يسمع سؤالها :

ــ علمت أنك غير مخطوبة !

ــ إذن فأنت تجرى عنى تحريات !

ــ لنا صديق مشترك ، عليات ..

ــ ولم تشغل بالك بما لا يهمك ؟

ــ وهنأتنى على إعجابى بك .

ــ حقا ؟

فقال بلهجة ذات مغزى :

ــ وتمنت لى السعادة والتوفيق ..

ومرت فترة صمت مفعمة بالرضى . واعتقد أنه اجتاز خطا هاما ، وأنه اجتازه بنجاح ، وأنه لم يضع دقيقة من وقته الغالى سدى . وقررت هى التهرب من نظراته فسألته :

ــ لم تجبنى على سؤالى هل تقوم الحرب من جديد ؟

فقال وهو نشوان بعواطفه :

ــ تحدثت عن أشياء يقينية مثل إعجابى بك .

ــ ولكنك لا تعرف عنى شيئا ..

ــ القلب يعرف أكثر مما يتصور العقل .

فغمغمت ولكنه لم يسمع فسألها :

ــ ماذا تقولين ؟ . أنت لم تتكلمى بعد !

فقالت ببساطة وصراحة وبنبرة غير ملعثمة :

ــ أنا سعيدة !

فتجلت فى عينيه نظرة ممتنة ، وتناول يدها بين يديه بحرارة وقال :

ــ فى المرة القادمة سنخطو خطوة حاسمة ، وحتى يجىء ذلك الوقت سأحيا حياة غنية وجديدة رغم كل شىء ..

ــ حفظك الله من كل شىء ..

فقال بسرور :

ــ كسبت قلبا جديدا سيشعر بنا على نحو ما .

وتفكرت فيما يعنيه ، وفطن هو إلى ما تفكر فيه فقال :

ــ يخيل إلى أن أحدا لا يشعر بنا سوى أهلنا !

فارتبكت ، ثم قالت كالمعتذرة :

ــ إنها تجربة جديدة علينا ، هذا هو الواقع ، ولكن ماذا عما يجب أن يكون ؟ .. ومن رأى الأستاذ حسنى أنها سياسة مرسومة ..

ــ من الأستاذ حسنى ؟

استردت انتباهها بخفقة قلب ولكنها قالت بسرعة :

ــ موظف كبير فى قسمنا بالمصلحة ..

ــ وماذا يعنى ؟

ــ يعنى أنهم لا يريدون تعبئة الشعب للحرب إلا قبيل دخول المعركة .

ــ الحق إنى لا أفهم !

ــ ولا أنا ، ولا يدعى أحد بأنه يفهم . هل ستقوم الحرب من جديد ؟ !

ــ فى الجبهة تؤمن بذلك .

ــ هنا لا نكاد نصدق !

ــ كيف ترون الأمر ؟

ــ ممكن أن تسمع كافة المتناقضات ..

فضحك إبراهيم وقال :

ــ إنكم تودون أن تجدوا النصر يوما خبرا ضمن أخبار الصحف ..

وضحكت . وبالضحك أفلتا من حصار القلق فعادا إلى موعدهما تحت الجبلاية . وتبادلا نظرة اعتذار طويلة وحنونة .

— ٥ —

قام حسنى حجازى من مجلسه فوق الكنبة الاستديو . انطلقت قامته الطويلة وسط حجرة الجلوس كالمارد . فى شقته يجد راحة شاملة وإحساسا بالسيطرة على كل شىء . الدواوين والمقاعد تصلح للاضطجاع كما تصلح للجلوس . وأجهزة التسلية قائمة بالأركان وسط تهاويل الديكور . والتحف مصفوفة فوق الأرفف عارضة ألوانا من فنون اليابان وخان الخليلى . من أعماقه يشعر بأنها توثق علاقته بالدنيا وتدفع عنه غوائل الفناء . مضى إلى البار فملأ كأسين من الكوكتيل الذى يعده بيده بخبرة وأناة ثم رجع إلى وسط الحجرة فوضع كأسا فوق ذراع فوتيل على بعد قيراط من يد سنية . ولبث واقفا ثم حرك كأسه قائلا :

ــ فى صحتك ..

وأفرغ كأسه ثم قال :

ــ لم يعد غريبا على هذه الحجرة أن تشهد وداع الأحبة ..

فقالت سنية :

ــ أنت رجل كريم ، فى الحياة والحب ..

فقال متظاهرا بالاهتمام :

ـ من حسن الحظ أنى حصلت أخيرا على فيلم ممتاز لا تقل مدة عرضه عن ربع ساعة ..

فابتسمت سنية ولكن بلا حماس . وتذكر كيف صرخت عند رؤية المشهد الأول من أول فيلم . كان ذلك منذ سنوات وكانت طالبة بالجامعة أو تلميذة بالثانوية . وكانت المفاجأة بالغة الإثارة والرعب . وقال بأسف :

ـ عليات انتهت ، خسارة فادحة ..

ـ إنها مخطوبة وتستعد للحياة الزوجية . ماذا تتوقع ؟

فقال فى دعابة :

ـ لا بأس من إباحة اللهو حتى الزفاف ..

فرمقته بعينيها الخضراوين وقالت بلهجة ذات معنى :

ـ فكرة الزواج تخلق المرأة من جديد ..

ـ كم من متزوجات .. !

فقاطعته :

ـ هذا موضوع آخر .

ثم وهى تضحك :

ـ ألا تريد للحب أن يحترم يوما أو بعض يوم ؟ !

ـ حاولت إقناعها ..

ـ أهى مهمة حقا عندك ؟

ـ العشرة عندى غالية دائما ..

فضحكت ساخرة هذه المرة وقالت :

ـ يخيل إلي كثيرا أن جميع النساء اللاتى يمرون من شارع شريف أنهن داهبات إلى شقتك أو راجعات منها ..

فقهقه حسنى حجازى وقال :

ـ جاحدة من تحدثها نفسها بالسخرية من هذه الشقة .

ـ أنت ترى أننى جئت بكل احترام لأودعها .

فهتف باسما :

ـ حتى أنت يا سنية !

فقالت بسرور :

ـ جاء دورى يا قيصر .

ـ حدثنى عنه أبوه ، أنه جندى ، أليس كذلك ؟

ـ بلى .

ـ أقرأ فى وجهك الرضى .

ـ شاب لطيف وجذاب .

ـ وهكذا قررت هجر العش كصديقتك عليات !

ـ إنى أحب من يرغب فى الزواج منى !

وقال لنفسه إن المرأة مثال الحكمة وأنها المخلوق الوحيد الذى يستحق أن يعبد ، ولكنه قال لها مداعبا :

ـ إذن فهى المصلحة ..

فقالت بعجلة واهتمام :

ـ لقد أحببته ، صدقنى ..

ـ أنت مصدقة ولكنى سآسف كثيرا لغيابك .

ـ لن تذوق فى هذه الشقة الوحدة أبدا ..

ــ ولكنها مكان عبور ليس إلا .

ــ إنه شعار يصلح لأى مكان .

فتراجع إلى الكنبة الاستديو ثم جلس . أغمض عينيه قليلا ثم قال :

ــ زرت الجبهة أخيرا ضمن وفد من المصورين السينمائيين . والتقطت صورا لبور سعيد شبه الخالية . هل سبق لك أن شاهدت مدينة خالية ؟

ــ كلا .

ــ كالحلم المرعب !

ــ زرت بور سعيد يوما واحدا قبل الحرب .

ــ أما أنا فعشت فيها ثلاثة أسابيع ونحن نصور فيلم « فتاة فلسطين » منذ أعوام . وهى تعيش وتنام كالمدن ، ولكنها تصحو فى أى ساعة من الليل لدى وصول أى سفينة ، وسرعان ما تخلق فيها الحياة بقوة وسرعة فتدب الحركة وتشع الأنوار وترتفع الحرارة ، وفى الأماسى تترامى من جنبات الميناء أغانى شعبية غاية فى الفتنة ..

ــ ووجدتها شبه خالية ؟

ــ ولم تمس بسوء بخلاف المدن الأخرى .

وصمتت قليلا ثم سألت نفسها :

ــ ترى هل تقوم الحرب من جديد ؟

فهز رأسه قائلا :

ـ لن يتهيأ لنا ذلك فى القريب ، ولن يشجعنا أحد عليه ، ولكن الصمود يوفر لنا أطيب شروط عقب هزيمة يونية ..

ـ الجنود يريدون الحرب ..

ـ هذا طبيعى ، وكذلك الجماهير ، أما نحن فلا ندرى ماذا نريد ..

وتأوه قائلا

ـ آه يا وطنى العزيز !

فقالت بمرارة :

ـ أما نحن فكفرنا بكل شىء ..

ـ أنتم أبناء الثورة وعليكم أن تحلوا مشاكلكم معها .

ثم سألها مغيرا نبرته :

ـ كأس أخرى ؟

فهزت رأسها نفيا فقال :

ـ قلت إنى حصلت على فيلم ممتاز !

فتساءلت ضاحكة :

ـ أتذكر فيلم القسيس وبائعة الخبز ؟

ـ هذا عن المرأتين ورجل ، ثم ينقض عليهم رجل غريب جديد !

فسألته :

ـ لم لا تتزوج قبل أن يفوتك القطار ؟

ـ ولكنه فاتنى يا عزيزتى .

ـ توجد زوجة مناسبة دائما ...

ـ تكلمى بخير وإلا فاسكتى

فسألته بجرأة :

ـ هل تحترم حياتك ؟

ـ لم أفكر فى تقييمها بعد !

فقالت بامتعاض :

ـ ما يؤلمنى أحيانا أننى سلمت ابتغاء شراء أشياء ، وإن تكن ضرورية . .

فقال لها بعطف :

ـ المجتمع يقوم على الأخذ والعطاء فلا تتألمى

فضربت الأرض بقدمها الصغيرة وتساءلت :

ـ متى نرى الفيلم الجديد ؟ !

ـ ٦ ـ

خيم الهدوء الشامل على مقهى الانشراح فلم يند عنها إلا قرقرة النارجيلة المتقطعة . وكان عشماوى يتناول عشاءه ـ رغيفا وطعمية ـ عند الباب ، أما عبـده بدران فجلس على مبعدة يسيرة من حسنى حجازى متحفزا للحديث أو لتقديم أي خدمة . وتساءل حسنى حجازى فى نفسه كيف يواجه رجل مثل عبده بدران أعباء الحياة الفاحشة الغلاء بأسرته الكبيرة ؟ . كيف

تتوازن ميزانيته المحـدودة ولو اقتصر الطعـام على الخبز ، والكساء على مخلفات سوق الكانتو والمسكن على بدروم ؟ . وأولاده مع ذلك تلاميذ فى المدارس ، واثنان منهم ـ إبراهيم وعليات ـ أتما تعليمهما الجامعى ، فأى معجزة تمارس فى غفلة من المؤمنين ! . وقال إن ما ينفقه فى ليلة يكفى لإعالة أسرة بضعة شهور ، ومع ذلك فهو لا يخلو من تذمر ، وإذا مر شهران دون عمل فى فيلم طويل أو قصير تولاه القلق فماذا يكمن وراء نظرة عم بدران الثقيلة الهادئة ؟ ! . وأقنعته عليات بأنها تحافظ على المظهر اللائق بفتاة جامعية بفضـل النقود التى تربحهـا من الترجمة فصدق الرجل الطيب ، ولم يخطر بباله أن نقوده هو ضمن النقود التى تسهم فى تربية كريمته ! ، آه .. يوم عرف عليات عرف أنها كريمـة عم بدران ، وداخله قلق ، وشىء من مناقشة الضمير ، ولكنه قتل وساوسه بعقله البارد . وقال إنه لا يؤمن بذلك كله . ولم يتزعزع احترامه لعليات . وقال عليهم اللعنة فهم يقبلون الضيم والظلم والاستعباد وينقلبون أسودا فاتكة فى وجه الحب واللهو .

وهمّ أن يسأل عم عبده كيف يواجه الحياة ، ولكنه سرعان ما أقلع عن فكرته خشية أن يفسد عليه هدوء جلسـة نصف الليل أو أن يتجه سؤاله على استجداء مسـاعدة أو طلب سلفة . ولما طال صمت الأستاذ قال عم عبده بدران :

ـ تمت خطبة إبراهيم وسنية أخت مرزوق .

علم بذلك فى حينه فأتحف العروس بهبة مالية كما أتحف علياب من قبل ، ولكنه قال :

ـ ليحفظ الله العريس ويسعد العروس .

ـ ناس طيبون وعلى قد حالهم مثلنا وهى موظفة بالإصلاح الزراعى !

فجاء صوت عشماوى من عند الباب قائلا :

ـ لا تعجبنى المرأة الموظفة !

فقال له عم عبده بدران :

ـ جميع بنات درب الحلة تلميذات والكبار منهن موظفات ..

فقال العجوز بسخرية :

ـ ولو !

ـ لو كانت لك بنت لتغير رأيك ..

فقال بفخار :

ـ أنجبت أربعة كلهم ذكور ..

وكان حسنى حجازى يسمع لأول مرة عن أبناء عشماوى فسأله :

ـ ماذا يعملون يا عشماوى ؟

ـ اثنان بين الخمسين والستين فى المذبح ..

ثم بفتور :

ـ الثالث قتل تحت الترام ، والرابع فى السجن !

وصمتوا دقيقة إعرابا عن التأثر والتأمل ثم سأل الأستاذ حسنى عم عبده :

ـ وهل يتزوج إبراهيم فى أول فرصة أو يؤجل ذلك لوقت السلم ؟

ـ هذا شأنه ، أنا أتمنى أن يتزوج اليوم قبل الغد ، ولكن متى تنتهى الحرب ؟

ـ من يدرى يا عم عبده ..

ـ حقا من يدرى ، إنهم يعانون معاناة الأبطال ..

ـ هذا حق .

ـ ومع ذلك فلا يهتم بهم أحد ..

ـ كلا ، ليس هذا صحيحا ، المسألة أن الناس لم يتخلصوا بعد من مرارة الهزيمة ..

وجذب حديث الحرب عشماوى من الخارج إلى الداخل فجاء بهيكله الضخم وهو يقول :

ـ ولكن الله سينصرنا فى النهاية ..

فقال حسنى حجازى :

ـ قل إن شاء الله .

فقال عشماوى :

ـ كل شىء بمشيئته ، لا بد أن نهزمهم وإلا فقل على الدنيا السلام .

فسأله حسنى :

ـ وإذا انتهى الموقف بحل سلمى ؟

فهتف العجوز الأعمش :

ـ أعوذ بالله .

وأراد أن يدلل على قدرة الله فقال :

ــ ربك كبير ، أتصدق أننى ضاجعت الولية ليلة أمس مرتين ؟

فذهل الأستاذ حسنى وهتف :

ــ مرتين ؟!

ــ وحق كتاب الله !

ــ عوفيت .. عوفيت يا عشماوى ..

ــ فلا تيأسوا من رحمة الله ..

وضحك حسنى عاليا ، ونظر صوب عبده بدران فأحنى رأسه مصدقا ! . وعاد عشماوى يقول :

ــ لم حصل ما حصل ؟ .. لأننا خسرنا الدين والأخلاق !

وقال حسنى لنفسه : ولكن ما الأخلاق ؟ .. أزمتكم الحقيقية أنكم فى حاجة إلى أخلاق جديدة !

— ٧ —

اكتظت ناصية الأمريكين فلا موضع لقدم . تلاصق الشبان تحت الأضواء وانحصر المارة بين الأجسام الحارة الفتية . وقل الكلام أو انعدم وحملقت الأعين وتحركت بعض السيقان بالرقص الخفيف . وثار سالك بجريه فى عباب الزحام غضبا لكرامته الشخصية فيما بدا وصاح :

ـ اخجلوا من أنفسكم ، واذهبو إلى الجبهة إن كنتم رجالا ..

ولم يخجل أحد فيما بدا أيضا . وتساءل صوت :

ـ لم يريد أن يرسلنا إلى الجبهة قبل الأوان ؟

وقال صوت آخر ساخرا :

ـ لعله يظن أنهم يرسلون النساء والكهول !

وشبعت شلة من وقفتها فانسحبت من معسكرها ومضت إلى « جنيفا » فتجمعوا حول بضــع زجاجات من البيرة . وجعلوا يشربون ويتكلمون كما يحلو لهم ، وغالبا بلا ضابط ولا نظام ، غير أن مرزوق أنور تولى مهمــة ملء الأقداح وتوزيعها .

ـ مشكلة الجنس فى ..

قاطعه :

ـ فى الجبهة مشكلة أهم .

ـ إنما أتكلم عن المشكلات الداخلية .

ـ دعه يتكلم ، المقاطعة ممنوعة .

ـ حدثنى أحد الكبار فقال إنه كان يوجد على أيامهم بغاء رسمى .

ـ زماننا أفضل فالجنس فيه كالهواء والماء !

ـ الماء لا يصل إلى الأدوار العليا .

ـ ولكنه يصل إلى الأدوار السفلى .

ـ ليس كالهواء والماء فالبنات تعلمن الاستغلال .

ـ إنها ضرورات العصر .

ـ البراءة تنهزم أمام السيارة مثلا .

ـ توجد دائما فرص طيبة .

ـ كما توجد الباصات .

ـ وحفلات الساعة الثالثة فى السينما .

ـ لا أهمية لذلك ، المهم هل الله موجود ؟

ـ ولم تريد أن تعرف ؟

ـ كان شغلنا الشاغل الوحدة العربية والوحدة الإفريقية

ـ وما دخل ذلك فى وجود الله ؟

ـ أصبح شغلنا الشاغل متى وكيف نزيل آثار العدوان

ـ معى دقيقة واحدة ، أهو موجود ؟

ـ كانت أياما مجيدة .

ـ كانت حلما .

ــ بل كانت وهما .
ــ ويضيقون بوقوفنا دقائق فى الناصية !
ــ الكلاب !
ــ إذا قدر لليهود أن يخرجوا فمن سيخرجهم غيرنا ؟
ــ من يقتل كل يوم غيرنا ؟
ــ ومن قتل عام ١٩٥٦ ؟ ، من قتل فى اليمن ؟ ، من قتل عام ١٩٦٧ ؟
ــ يظن العجوز أن المحافظة على بنت نصف عارية هى كل شىء ..
ــ علينا أن نبدأ من الصفر ..
ــ أن تزاح عن صدورنا الكوابيس .
ــ لا أحد يريد أن يجيبنى ، أهو موجود ؟
ــ طيب يا أخى ، إذا حكمنا بالفوضى الضاربة فى كل مكان فلا يجوز أن يوجد !
ــ أليس من الجائز أنه يملك ولا يحكم ؟
ــ والمصريون من عباده ؟ ! !
ــ أأنت شارع فى الزواج حقا ؟
ــ نعم ، خذ قدحك ..
ــ لماذا ؟
ــ لأنى أحب .
ــ وما العلاقة بين هذا وذاك ؟
ــ يجب أن نفعل شيئا على أى حال .

ـ بماذا نفسر تفشى الزواج المبكر بين الشبان ؟

ـ بالفقر !

ـ بالموت !

ـ بنظام الحكم !

ـ سنضطر إلى الوقوف غدا من شدة الزحام .

ـ أليس من الأفضل أن نهاجر بدلا من أن نتزوج ؟

ـ الزواج هجرة داخلية .

ـ الحق أنه يلزمنا شيء من انتهازية الأجيال السابقة .

ـ لا غنى عنها فى الزحام .

ـ إذن فلماذا يخشى العالم الحرب ؟

ـ ليست الحرب بأفظع ما يتهدد العالم .

ـ أيوجد ما هو أفظع ؟

ـ الفرد غير آمن تماما بين أهله ، والأسرة تخشى الجيران ، والوطن مهدد من أوطان شتى ، والعالم يحيط به عالم خفى من الكائنات الضارة ، والأرض قد يخربها خلل بالمجموعة الشمسية ، والمجموعة الشمسية قد تنفجر وتختفى فى ثوان .

ـ أنت مجنون !

ـ ولكن علينا أن نضحك وألا نسمح لشيء بأن يفسد علينا حياتنا الغالية ..

ـ آمين .

ـ آمين .

ـ آمين .

— ٨ —

ارتسمت فى وجه عشماوى صورة غير عادية . انغرست فى أساريره غضبة كالحة فولاذية انداحت فوق جفاف الشيخوخة وبروز الفكين وتهدل اللحيين . وعندما استقبل الأستاذ حسنى حجازى لم ينجل شعاع واحد للبشاشة فى وجهه حتى توجس الأستاذ خيفة مجهولة فقال ــ وهو يتخذ مجلسه ــ لعم عبده بدران :

ــ خير إن شاء الله ؟ !

وسمعه عشماوى فأقبل نحوه حتى وقف أمامه وتدفق قائلا :

ــ إنى ألعن كل شىء ، وألعن فوق كل شىء نفسى ، إنى ثائر على ضعفى وعجزى واندحارى فى صندوق القمامة بلاحول ، ومن أنا ؟ ! ، أنا عشماوى الخشن ، صاحب القبضة الحديدية والنبوت المخضب بالدماء ، أنا من يرجف عند ذكر اسمه الرجال وتتوارى النساء ويستعيذ بالله منه رجال الشرطة ، أنا المجرم الجبار الفتاك الطاغية السفاك النمرود الشيطان ..

واختنق بأنفاسه فقال حسنى حجازى بلين ودعابة :

ــ وكيف تشكو الضعف وأنت ذلك كله ؟ !

ــ إنى أحكى عن الماضى ، عن الماضى أحكى لا الحاضر ،

افهمني يا أستاذ ، كنت رجل درب الحلة وحاميها ، وكان الويل نصيب من يتعرض لأحد من أهلها بسوء ، بفضلي نعموا بالسلام والأمان ، بفضلي بغوا على الخلق وهم في أمن من العواقب ، كان اسمي قانونا وسيفا ونعمة وغنى وفقرا ، ماذا جرى يوم اعتدى نذل من القبيسي على رجل من حارتنا ؟ ، هجمت على الحي كالقضاء والقدر ، لم أفرق بين متهم وبرىء ، تهـاوت الضربات على رءوس المارة ، حطمت الدكاكين ، احترقت عربات اليد ، انهمرت الأحجار على النوافذ والأبواب ، واسأل عني أيام سعد ، ولا تسأل عن عدد ضحاياى ، وقد عرفت بشارب الدماء مذ ذبحت إنجليزيا وشربت دمه المسـفوح ، هذا هو عشماوى الخشن !

فقال حسني حجازي وهو يلعنه في سره :

ـ تاريخك معروف يا عشماوى ولكن لم أنت غاضب ؟!

ولكن العجوز لم يجب . ورجع إلى مجلسه عند الباب وغرق مرة أخرى في الحزن والصمت . ونظـر حسني حجازي إلى عم عبده بدران في فضول فقال عم عبده بدران بإشفاق بلغ حد الخوف :

ـ أصيب شابان من أهل درب الحلة .

فقال حسني باستنكار :

ـ ظننت أن أيام الفتونة والمعارك قد انتهت إلى غير رجعة .

فقال عبده بدران بوجه شاحب :

ـ أصيبا في الجبهة !

فوجم حسنى حجازى ، ثم تفكر فى كلمة مناسبة يقولها ، ولكن عشماوى سبقه صائحا :

ـ قصدتنى جدة أحدهما مستغيثة بى كالأيام الخالية ، ظنت الولية أن عشماوى ما زال كعهده القديم يستغاث به فيغيث !

فقال حسنى حجازى :

ـ إنهما بطلان يا عشماوى ..

فقال الرجل بحنق :

ـ أنت لم ترهما ولم تر العنبر ..

ـ زرتهما فى المستشفى ؟

ـ زرتهما ، رأيت وسمعت وشعرت بعجزى فلعنت كل شىء كما لعنت نفسى .

فقال حسنى بروح عالية وهو يقصد أولا عم عبده بدران :

ـ هما بطلان ، وهكذا الحرب فى كل زمان ومكان .

فصاح عشماوى :

ـ إنى ألعن العجز ..

ـ سليمة سليمة بإذن الله .

وقال عم عبده بدران ليبدد مخاوفه الشخصية بدعابة :

ـ وأنت يا عشماوى ألا تطالب دائما بالحرب والنصر ؟

فتحول غضبه إلى حزن وهو يردد :

ـ الحرب والنصر ولكنى عجوز لا خير فيه !

ـ حسبك أنك شربت من دم الإنجليز فى شبابك !

ثم نظر عبده بدران إلى الأستاذ حسنى وقال :

ــ فى الثورة الأولى كنت دون السن اللازمة للجهاد واليوم أنا فوق السن المناسبة للحرب فلم أفعل شيئا يذكر للوطن ..

ــ ولكن ابنك فى الجبهة ، خبرنى هل يؤلمك تصورك أنك لم تفعل شيئا ؟

ــ أحيانا ولكن أعباء الحياة تغرقنى حتى القمة !

وتذكر حسنى أنه ذو موقف مماثل ، وأنه كان يحاسب نفسه فى أزمات تلم به ، وأنه كان يطفىء سعارها ببرودة العقل الخالدة ، وأنه أوشك أن يقنع نفسه بأنه يفتح شقته للأفراح البريئة والخير ! . وسأله عبده بدران :

ــ على أى وجه سينتهى الموقف يا أستاذ ؟

فضحك حسنى عاليا وقال :

ــ السؤال الخالد ! ، ماذا يمكن أن يقال ؟ ، فلننتظر ..

ــ ولكن الموت لا ينتظر .

ــ إنه سباق ونحن لا نموت وحدنا !

وعند ذلك تساءل عشماوى :

ــ وهل أولاد الأغنياء يقتلون أيضا ؟

فلم يتمالك حسنى نفسه من الضحك وقال :

ــ ولكن التجنيد لا يفرق بين غنى وفقير يا عشماوى ..

فهز رأسه فى ارتياب وعاد يسأل :

ــ وهل يرسلونهم حقا إلى الجبهة ؟ .. قلبى يحدثنى بغير ذلك ! .

ــ لا تصدق قلبك يا عشماوى .

وعكف على النارجيلة . وقال لنفسه إن جلسة الليلة خسرت هدوءها العتيد ، وأن الحزن فيها امتزج بالضحك ، وأن الهزيمة مُرّة وعواقبها تنتقل من مركز إلى مركز فى المخ ولكنها لن تمحى ، وأن جبلا شامخا انهار ، وتبدذ حلم عجيب ، وأن خير ما يريح به نفسه أن يترك الأمانة لحامليها . وساءل نفسه وهو ينفث الدخان من فيه وأنفه أين يجد مكانا لا يتردد فيه ذكر الحرب ؟!

ــ ٩ ــ

جمعت الشرفة المطلة على المنيل الصديقات الثلاث : عليات عبده وسنية أنور ومنى زهران . وكان الخريف يبث فى الجو برودة لطيفة ويزيّن سماء الأصيل بسحب ناصعة البياض . وقد لبت عليات وسنية دعوة عاجلة إلى مسكن منى بالمنيل فتوقعتا أخبارا جديدة وسعيدة . وهن صديقات حميمات منذ الدراسة الثانوية ، وتمتاز منى بجمال رائق يتمثل فى بشرتها الضاربة للبياض وعينيها السوداوين الجذابتين وقامتها الرشيقة المائلة للطول ، كما تمتاز بأسرتها المتوسطة ذات الدخل الموفور ــ الأب مدير إدارة قانونية والأم ناظرة مدرسة متقاعدة باختيارها ــ فضلا عن أنها موظفة بالسياحة منذ عام . وكان لها شقيقان

أحدهما مهنـــدس فى بعثة بالاتحاد السوفيتى والآخر طبيب بالمنوفية ويتوقع اختياره فى بعثة قريبة ، ولذلك كانت طموحة تداعبها الأحلام ولا تستقر . وكان مسكن منى يذكر عليات وسنية بمسكن الأستاذ حسنى حجازى رغم الفارق المحسوس بينهما ولكن الحســـد لم يتسلل إلى نفسيهما بفضـــل العلاقة الحميمة الحارة . وقد توقعتا أخبارا جديدة وسعيدة ولكن منى قالت باقتضاب مثير :

ــ فسخت خطوبتى قبل أن تعلن !

انزعجت الفتاتان حقا ، وقالت عليات :

ــ غير معقول !

وقالت سنية :

ــ أى خبر !

وكانت منى قد قدمت لهما ــ منذ شهر ــ فى دار الشاى الهندى شابا يدعى سالم على ، قاض بمجلس الدولة ، باعتباره الصديق والخطيب المنتظر ، ولذلك توقعتا من وراء الدعوة العاجلة أخبارا جديدة سعيدة لا هذا الخبر الأسيف . وقالت سنية وهى تهز رأسها هزة ذات معنى :

ــ وطبعا كنت أنت البادئة ! ؟

فقالت منى بتحد :

ــ ظنك صادق دائما معى !

ــ ولكنه شاب جذاب وذو مركز يا منى ؟

وقالت عليات :

ـــ وكان واضحا أنه يحبك وأنك تبادلينه الحب ؟

عند ذاك تململت منى من الضيق وربما من عاطفة لم تستطع بعد أن تقتلعها من أعماقها ، فثبت لهما أنها إنما دعتهما لحاجتها إلى الأنس والعزاء ، ولكنها قالت بنبرة لم تخل من حدة :

ـــ عرفت عن يقين أنه يقوم بتحريات عنى !

وساد الصمت حتى قالت سنية :

ـــ أهذا ما أخذته عليه ؟

ـــ وهو كاف، وفوق الكفاية .

فقالت عليات :

ـــ أراهن على أنه فعل ما فعل بحسن نية !

ـــ أنا لا أتهمه بسوء النية ولكن بسوء العقلية أتهمه ..

ثم مستدركة بانفعال شديد :

ـــ ولم أتردد فواجهته بالتهمة ، تلعثم وحاول أن يفسر سلوكه بغير بواعثه الحقيقية ولكنى رفضت تفســـيره وطالبته باحترام نفسه فاعترف واعتذر بسخافات لا أذكرها ولا أحب أن أذكرها فلم أقبل عذره ، وقالت له ولم لا تسعى إلى الزواج عن طريق خاطبة ، وسألته عما يريد معرفته عنى أكثر مما يعرف أو مما يمكن أن يعرف بالاتصال المباشر وبالحب المزعوم ، قال إنه برىء وأنه يحبنى وأن سمعتى نقية مثل الورد فضحكت ساخرة وقلت له إنى أحتقر تحرياته وأحتقر النتائج التى وصل إليها وأنه خدع أو أنه لم يحسن التحرى ، وقلت له إن ماضى ملكى وحدى كما أن ماضيه ملكه وحده وأننى أرفض كافة

أنواع العبـــودية فى أى زى تزيَّت وبأى اسم تحلَّت ، وأنه لا يصلح لى كما لا أصلح له .

وسكتت وهى تلهث والغضب يرتعش فى شفتيها ويدلهم فى عينيها . وبدا أن صديقتيها لا تؤيدانها فى موقفهـــا وإن شاركتاها فى الإحساس والرؤية . تساءلت عليات :

ــ ألم تبالغى يا منى ؟

وقالت سنية :

ــ هى تقاليد بلادنا !

فهزت منى رأسها بعناد وقالت :

ــ إنى أرفض ذلك كله .

فقالت سنيه :

ــ إنهم معقدون ويحتاجون إلى ترويض طويل .

وقالت عليات وكأنما تتم الكلام :

ــ لا إلى التحدى ..

فقالت منى بعجرفة :

ــ أفضل أن أبقى بلا زواج إذا كان الثمن كذبة سخيفة .

فقالت عليات :

ــ ولكن ظروفنا حرجة كما تعلمين ..

ــ لا يمكن أن أتهاون فى مبادئى وأخلاقى .

أجل فهى معروفة بأخلاقياتها . وهى لم تمارس الجنس إلا بدافع من الحب ، ولم تضطر ــ مثلهما ــ إلى ممارسته فى أحيان

كثيرة لاقتناء ما يحتاجان إليه من ملابس وأدوات زينة وكتب . ولعلها كانت تحتقر سلوكهما وإن عطفت عليه من أعماق قلبها الحب . وقد تابعت خطوات خطوبتهما وما اقتضته من شهادات الزور والأكاذيب وغير ذلك ، ولم ترتح لشيء منه وإن تعزت بأن جميع تلك السخافات إنما ارتكبت باسم حب حقيقى . وكانت محاولة إثنائها عن موقفها ميئوس منها لما تعرفان من عنادها وكبريائها ومثالياتها ، فسلمتا بالواقع فى حزن وكآبة .

وقالت لها عليات :

ـ أنت يا منى جميلة وممتازة وجديرة حقا بزواج سعيد !

فسألتها منى :

ـ ترى هل تطمئنان إلى مستقبلكما القائم على كذبة كبيرة ؟

فقالت سنية :

ـ إنه يقوم على الحب .

أما عليات فقالت بقلق :

ـ إن رجلا مثل حسنى حجازى خليق بصون سرنا .

فقالت منى :

ـ حسنى حجازى لا تتوقع منه الخيانة .

فعادت عليات تقول :

ـ أحيانا أتذكر المصادفات المرعبة التى تقلب الأمور فى السينما !

فقالت سنية بقوة متحدية :

ـ لم يكن فى وسعنا أن نفعل خلاف ما فعلنا وعلينا أن نواجه مصيرنا .

وفجرت الزيارة فى نفس عليات وسنية دوامات من القلق ولكن استقر فى أعماقها فى النهاية قول سنية « علينا أن نواجه مصيرنا » .

ـ ١٠ ـ

لم تسعد منى باتتصار كبريائها . أو لم تسعد كما قدرت . وفى أوقات انفرادها بنفسها غزتها الكآبة كالغبار . خافت أن ترتكب حماقات بلا نهاية . اعترفت لنفسها المتمردة بأنها ما زالت تحب سالم على رغم حماقته وسخافاته . أدركت أنها تقف حيال مشكلة وأن المشكلة تنطلب على أى حال حلا . وجاء شقيقها الدكتور على زهران إلى القاهرة فى إجازة فسرّت بحضوره وقصت عليه تجربتها الفاشلة . وأسف الرجل ولكنه كان مستغرقا بهموم طارئة فقال لها :

ـ إنى أفكر فى الهجرة !

فدهشت منى وتمتمت :

ـ الهجرة ؟ !

ـ الحق أنى جاوزت مرحلة التفكير فاستقر رأيى على الهجرة .

ـ ولكنك تنتظر فيما أعلم بعثة علمية ؟

ـ لم ألق إلا المماطلة ، ففكرت فى الهجرة ثم استقر رأيى عليها .

ـ وكيف يتم لك ذلك يا أخى ؟

ـ إنى على وشك الانتهاء من بحثى عن الطفيليات وسوف أرسله إلى زميل مهاجر بالولايات المتحدة ليعرضه على الجامعات وبعض المراكز الطبية ومن ثم أنتظر أن أدعى للعمل فى إحداها ، وهو ما حصل معه بالضبط .

فشهقت بقوة من شدة الانفعال وقالت :

ـ أهاجر معك !

ثم بثقة :

ـ إنى متخصصة فى الإحصاء وأتقن الإنجليزية .

فابتسم الدكتور وقال :

ـ لئن نهاجر اثنين خير من أهاجر وحدى .

وعارض الوالدان الفكرة ، ولم يدركا لها حكمة ما دام للشقيقين مستقبل مرموق فى مصر ، فقال الدكتور لوالديه :

ـ هكذا حال البلد .

وقالت منى :

ـ وهو لا يطاق .

وأراد الأب أن يستثير عاطفتهما الوطنية ولكن الدكتور على قال بجرأة عدّها الأب قاسية :

ــ لم يعد الوطن أرضا وحــدودا جغرافية ولكنه وطن الفكر والروح !

وتألم الأب الذى ينتسب إلى جيل ١٩١٩ ، جيل الوطنية المصرية الخالصة ، واستمع إلى ابنه بانزعاج فخيل إليه أنه يطالع ظاهرة غريبة تستعصى على الإدراك والتفسير . وكان يسلم بأنه لا يستطيع أن يثنيهما عن عزم إن اعتزماه حقا فتساءل فى جزع كيف يمكن أن يحتمل الحياة بدون وجودهما معه فى وطن واحد على الأقل ! ، وكانت منى تحب أباها كثيرا ولكنها لا تكاد تتفق معه فى رأى ، وعجبت كيف أن هزيمة ٥ يونية فجّرت وطنيته من جديد فعادت سيرتها الأولى على حين أنها منيت بخيبة شاملة تدفعها باستمرار إلى تغيير جلدها خلية خلية . وهو ما حصل لعليات وسنية وغيرهما وما حصل لشقيقها . وقالت مخاطبة الدكتور :

ــ إننا نحيا بلا هدف !

فقال لها بامتعاض :

ــ وأنا أحيا بلا حياة ..

ــ يجب أن نهاجر .

ــ سنهاجر عند أول فرصة .

واعتبرت منى نفسها سائحة عابرة فشعرت براحة نفسية لم تشعر بها مذ قطعت علاقتها بسالم على . وسرعان ما ذاع الخبر بين صديقاتها وزميلاتها وفى الأوساط التى تتنقل فيها . وراحت تحلم بحياة جديدة نقية توفر للفرد سبل التقدم والازدهار

والأمن . وكانت عائدة من مكتبها عصرا عندما وجدت أمامها سالم على فى ميدان طلعت حرب . لم تكن مصادفة ، ولم يحاول ادعاء ذلك ، ولكنه مد لها يده وهو يقول :

ـ علمت أنك ستهاجرين إلى الولايات المتحدة فعز علىّ ألا أودعك ..

فصافحته ببرود آخفت به انفعالها وقالت :

ـ أشكرك .

ومضت فى سيرها فسار إلى جانبها فرمقته باحتجاج ولكنه تجاهلها فعادت تقول :

ـ قلت أشكرك !

فقال بهدوء :

ـ ولكننى لن أتركك .

فسألته بالبرود نفسه :

ـ لماذا ؟

فقال وكأنه يعترف :

ـ وضح لى أنى أحبك وأننى لم أستطع الإقلاع عن الحب .

ووجدت أنها سعيدة لدرجة فاضحة فغضت بصرها وهى تقول :

ـ ولكننى وفقت فى ذلك ..

ـ إذن فلنذهب إلى دار الشاى الهندى .

وسارا جنبا لجنب وقد انقلبت أحلامها رأسا على عقب فقال وهو يتنهد فى ارتياح :

ــ الحب أهم شيء فى الدنيا !

ثم بارتياح أعمق وشيء مما عاناه من عذاب :

ــ إى والله ، الحب أهم شيء فى الدنيـــا ، وكل ما عداه باطل ..

ونظر إليها متسائلا :

ــ هل ستهاجرون حقا ؟

فأجابت بفتور :

ــ نعم ..

ــ ليتنى أستطيع الهجرة أيضا .

فسألته باسمة :

ــ وماذا يمنعك ؟

ــ تخصصى لا يؤهلنى لها .

ثم وهو يضحك :

ــ لا مفر من البقاء فى مصحة الأمراض العقلية .

— ١١ —

فى قرار واحد أصبح مرزوق أنور وخطيبته عليات عبده موظفين فى الحكومة . تعينت هى فى وزارة الشئون الاجتماعية أما هو فتعين فى المنطقة التعليمية ببنى سويف . تكدرت فرحة التعيين وأطل شبح الفراق على الحبيبين وتساءلا كيف يجتمع شمل عروسين واحدة فى القاهرة والآخر فى بنى سويف . وذهب مرزوق إلى محطة مصر فصحبه أبوه وعليات ، وجلسوا حول مائدة فى البوفيه حتى يأزف ميعاد قيام قطار الصعيد . كان الأب فى الستين ولكنه بدا أكبر من عمره بعشرة أعوام على الأقل ، وكان ممن يأخذون الأمور بتسليم وبساطة ، كما كان يعتبر ابنه من « المفقودين » على أى حال سواء أبقى فى القـــاهرة أم رحل إلى أسوان . لذلك شجعه طيلة الوقت ، وضرب له مثلا بحياته هو فى الثلاثينات ــ سنوات الأزمة الاقتصادية ــ عندما تقـــاذفته بلدان القطر والإفلاس يطارد التجار ويصفى المحال التجارية واحدا بعد آخر . ومالت عليات نحوه وسألته همسا :

ــ أتعرف ذلك الرجل الذى يجلس أمامنا ؟

فنظر نحو الأمام فرأى رجلا جالسا ، يدخن غليونا ، ويتفحصه بنظر ثاقب غير هياب فقال على الفور :

ـ كلا .

لم يكن يعرفه ولكن خيل إليه أنه لا يراه لأول مرة ، فمتى رأى هذا الوجه شبه المربع الريان ، وهاتين العينين البراقتين ، وهذين الحاجبين الكثيفين ، وهذا الرأس القوى الأصلع ؟ وهمست عليات مرة أخرى :

ـ إنه لم يحول عنك عينيه طول الوقت .

ولا بدا أنه يريد أن يحولهما عنه بعد أن تنبه إلى نظراته . ولم يقنع بذلك فقام بهدوء وتقدم خطوات ثم وقف أمامهم ، وأحنى رأسه تحية وقال يقدم نفسه :

ـ محمد رشوان .. مخرج سينمائى .

فقام مرزوق أنور بدوره ، أحنى رأسه وقال :

ـ مرزوق أنور .. موظف .. تشرفنا يا فندم .

فسأله وهو يواصل فحصه :

ـ أليس لك تجربة سابقة فى فن التمثيل ؟

فأجاب مرزوق بدهشة :

ـ كلا .

ـ ألا تحب أن تجرب نفسك ؟

فضحك مرزوق رغم توتر أعصابه وقال :

ـ لم يخطر لى ذلك ببال .

فقال وهو يهز رأسه هزة خبير :

ـ عندى لك دور بطولة ..
فهتف مرزوق فى ذهول :
ـ بطولة !
ـ كنت مشغول البال بحثا عمن يلعبه فلما وقعت عليك عيناى وجدت ضالتى ماثلة أمامى ، فما رأيك ؟
فقال مرزوق بصوت متهدج :
ـ أمهلنى قليلا .
وقال الأب :
ـ إنه فى طريقه لتسلم وظيفته الجديدة !
وسألته عليات :
ـ هل يضمن بهذا الدور عملا ثابتا ؟
فقال محمد رشوان :
ـ عندى له أكثر من دور بطولة وأنا أتنبأ له بالنجاح ..
فقالت عليات :
ـ ولكنه لم يسبق له أن مارس التمثيل ..
ـ هذا أفضل ، سيخرج من تحت يدى كالجنيه الذهبى !
وكان رأس مرزوق قد دار وثمل فقال متخذا قراره :
ـ موافق ..
فقال له أبوه :
ـ فكر قليلا يا بنى .
ولكنه قال بإصرار :
ـ موافق وسأجرب حظى ..

وأعطاه محمد رشوان بطاقته وهو يقول :

ـــ تقابلني غدا فى هذا العنوان فى العاشرة صباحا ، عندك تليفون ؟

فهز مرزوق رأسه نفيا فقال :

ـــ ودورك جديد فى الواقع ، دور شاب جامعى مجند ، يزور القاهرة فى إجازة قصيرة فتقع له أحداث هامة ، وتحبه سيدة مجهولة الجنسية وتدعوه للهرب معها .

فتساءل مرزوق :

ـــ وهل يهرب معها ؟

ـــ هذا ما سيجيب عنه الفيلم ، والمهم أن تبقى الحال على ما هى عليه حتى يعرض الفيلم ..

ـــ أى حال تقصد ؟

ـــ أقصد الموقف فى الجبهة ..

فسأله الأب :

ـــ وهل تتوقع أن يتغير الموقف قبل ذلك ؟

ـــ المنتج يؤكد أن الموقف قد يبقى بعض الوقت .. ، أما ..

فتساءل مرزوق :

ـــ أما ؟

فضحك محمد رشوان وقال :

ـــ أما إذا انهزمنا مرة أخرى أو حتى إذا انتصرنا فستكون العواقب وخيمة على الفيلم وصاحبه !

— ١٢ —

التقى مرزوق بالسيدة المجهولة الجنسية . كانت تطارده وهو لا يدرى ولكنها تظاهرت بالبرود وسألته سؤالا عابرا . وأجابها بأدب وبلا اهتمام أولا ، ثم جذبه بغتة جمالها المضىء فصعق تماما . وكان يرتدى بدلته العسكرية وتتجلى البراءة فى عينيه .

ووقف وراء الكاميرا ضمن نفر من المراقبين عليات عبده وسنية أنور ومنى زهران وإبراهيم عبده وسالم على . حتى التنفس مارسوه بحذر فساد الصمت وشمل كل شىء ، ولم تدب الحياة إلا تحت الأضواء الباهرة داخل البلاتو . ولما أعلن محمد رشوان انتهاء اللقطة خرج الممثلان من دورهما وردت الروح إلى الواقفين وراء الكاميرا فقالت منى زهران :

ـــ إنه ممثل أصيل .

وقال إبراهيم عبده :

ـــ شىء لا يصدق !

وعبثا حاولت عليات إخفاء توتر أعصابها والفرحة التى انطلقت فى حنايا قلبها . وأقبل مرزوق نحوهم فصافحهم وعانق إبراهيم . ووقف أمام إبراهيم فى زى عسكرى واحد يتبادلان النظر والابتسام . وقالت عليات مخاطبة أخاها إبراهيم :

ـ إنه يلعب دورك فى الفيلم !

وتفحصه إبراهيم بعناية وقال :

ـ ولكنك أنيق كضابط .

فقالت سنية ضاحكة :

ـ لأنه يمارس الحب لا القتال .

فسأله إبراهيم :

ـ وهل يمتد دورك إلى الجبهة ؟

فأجاب مرزوق .

ـ أجل ، قرأته فى السيناريو ، وهو يصور بطولة خارقة .

فضحك إبراهيم ولم يعلق بحرف . وجاء المخـــرج محمد رشوان فصافح الجميع . وكان قد عرف عليات وسنية من قبل فتعرف بمنى زهران وخطيبها سالم على . وكان يتفحص الوجوه كما يتفحص الصائغ الحلى . واقترب من إبراهيم وقال له :

ـ سنحتاج إليك فى بعض المعلومات الضرورية .

فتساءل إبراهيم ضاحكا :

ـ تقصد بعض الأسرار ؟!

ـ كلا .. إنما ما يسمح بتصويره .

ـ ليس كل ما يسمح بتصويره مما يحسن تصويره !

فقال محمد رشوان :

ـ إنما هدفنا أن نحيى بطولتكم !

ثم التفت إلى منى زهران وسألها :

ـ ألا توافقين على ذلك ؟

فهزت رأسها بالإيجاب . ثم عاد إلى إبراهيم وقال :

ــ كلنا جنود ولكن تختلف الميادين !

فضحك إبراهيم بفتور وقال :

ــ ولكننا نقاتل وأنتم تمثلون !

وضحك الجميع . وأزف وقت تصوير لقطة جديدة فذهب مرزوق ومحمد رشوان . وعند ذاك قالت منى زهران :

ــ هذا المخرج لا يوحى بالثقة !

فقالت عليات :

ــ ولكنه ذو فراسة مذهلة ومقدرة خارقة .

فلوت منى شفتيها وقالت :

ــ إنى على خلاف الكثيرين أحترم الأفلام الهزلية .

فسألها سالم على :

ــ لماذا يا عزيزتى ؟

ــ هى على الأقل صادقة !

فضحك إبراهيم فى مرح صاف لأول مرة وقال :

ــ صدقت .

ثم همس فى أذن سنية خطيبته :

ــ كدت أفقد حياتى أمس مرتين !

فقبضت على كفه بحنان وهمست :

ــ لا سمح الله !

وعكست عيناها الخضراوان نظرة ساهمة . وسألت عليات منى بمرح عابث :

ـــ متى تهاجرين ؟
فأشارت منى إلى سالم وقالت :
ـــ هذا الرجل هو المسئول عن فشل المشروع .
فقالت له عليات :
ـــ نحن مدينون لك بالشكر .
فقالت منى :
ـــ الهجرة على أى حال سنة !
فسألها إبراهيم :
ـــ ولو كانت إلى الولايات المتحدة ؟
فأجابت بتحد :
ـــ ولو كانت إلى الجحيم !

— ١٣ —

فى زيارة طارئة تلاقت عليات وسنية مع منى زهران فى مسكنها بالمنيل . لم تكن زيارة عادية ، أو هذا ما قرأته منى فى عينى صديقتها . وقالت عليات :
ـــ لدينا رسالة هامة .
فأثار ذلك حب استطلاعها إلى أقصى حد وتساءلت :
ـــ أى رسالة ؟.. وممن ؟
ـــ من مرزوق أنور !

ــ الفنان الكبير ! ؟

فقالت سنية :

ــ محمد رشوان المخرج يرغب فى مقابلة خاصة ..

فذهلت منى واتسعت عيناها ولم تدر ماذا تقول ، فقالت عليات :

ــ إنه يفتح لك دنيا الكواكب والنجوم ..

وقالت سنية :

ــ وإن أردت الحق فكأنك خلقت لذلك ..

وتفكرت منى وهى فى غاية الانفعال ، وتمتمت :

ــ لم يجر لى ذلك فى خاطر .

فقالت عليات :

ــ ولا كان جرى فى خاطر مرزوق .

ــ أود أن أستأنس برأيكما ..

فقالت عليات :

ــ جربى حظك بلا تردد .

وقالت سنية بتوكيد :

ــ بلا تردد .

ــ ولكننى لم أجرب هذا الفن من قبل .

فقالت سنية :

ــ الحب قد يسبق الفن وقد يلحق به ، لا أهمية لذلك ..

وفى الساعات القلائل التى تلت المقابلة جعلت تفكر فى الأمر فاجتاحتها فكرته ووقعت أسيرة لسحره . وتلفنت لسالم على أن

يقابلها فى دار الشاى الهنــدى ولما أخبرته بما اعتزمته ذهــل الشاب وصعق وقال :

ــ لا شك أنها دعابة !

فقالت بتوكيد :

ــ بل إننى أعنى ما أقول تماما .

فهتف بيأس :

ــ ممثلة سينمائية !

فقطبت متسائلة :

ــ ولم لا ؟ !

فقال بغضب :

ــ لا !

ــ ولم تعجبها لهجته وأشعل غضبه كبرياءها فقالت :

ــ لا أقبل هذه اللهجة ..

ــ وأنا أرفض الفضيحة !

ــ فضيحة !! ، أنت .. أنت ..

فقاطعها بحدة :

ــ لقد قبلت من أجلك ما لا أستطيع تجاوزه بخطوة أخرى واحدة ..

فصاحت :

ــ أأنت تمن على بذلك ؟ !

ــ إنى أعنى تماما ما قلت ..

فاصفر وجهها وقالت بانفعال شديد :

ــ كفى .. كفى .. أرجوك .. لا ترنى وجهك بعد الآن !

فقام وهو يقول :

ــ أنت معقدة ومجنونة !

وفسخت الخطوبة للمرة الثانية .

واستجابة لانفعالها الشديد ، فضلا عن رغبتها الأصلية ، سعت إلى مقابلة محمد رشوان . زارته بصحبة مرزوق أنور ، فى مكتبه بشارع عرابى . ورحب بها بحرارة وجلس إلى مكتبه وهو يقول :

ــ إنهم يسموننى يا آنسة منى كولمبس لكثرة ما اكتشفت من نجوم وكواكب ، ولم تخب نظرتى مرة واحدة فأبشرى مقدما بالنجاح ..

فأشار مرزوق إليه وقال لها :

ــ إنى أومن بهذا الرجل !

وعاد محمد رشوان يقول :

ــ إنى أرشحك لبطولة فيلم أعتز به جدا ، هل تغنين ؟

فأجابت بحياء :

ــ كلا .

ــ لا يهم ، ممكن الاستغناء عن الغنــاء ولكننى لن أفرغ للفيلم الجديد قبل ستة أشهر ..

فقال مرزوق :

ــ وهى فرصة لإجراء الاختبــارات الضرورية والدعاية اللازمة ..

ـــ برافو مرزوق ، وإذن فقد تم الاتفاق على كل شيء ..

وعقب مرور يومين على المقابلة استدعاها المخرج تليفونيا إلى مكتبه . وفى ذلك الاجتماع الذى اقتصر عليهما التقط لها بعض الصــور الفوتوغرافية ، وأجرى لها بعض الاختبارات الصوتية كما دعاها إلى تمثيل موقف درامى من أحد أفلامه . وطيلة الوقت شجعها بابتسامة لطيفة فآنست إليه وخفق قلبها بالامتنان . غير أنها لم ترتح إلى نتائج الاختبارات رغم تشجيعه الودود . ومالت إلى الاعتقاد بأنها لم تخلق لهذا الفن وأن أى اجتهاد تبذله فيه مصيره الضياع . ولم تخف عنه مخاوفها فقالت :

ـــ إنى غير راضية عن نفسى ..

فضحك محمد رشوان عاليا وقال :

ـــ هذا بالحرف ما قالته فتنة ناضر عن نفسها فى أول اختبار

فعاودها شيء من الأمل فى صورة ابتسامة حلوة فقال :

ـــ وفتنة ناضر فى الأصل جامعية مثلك وهى اليوم جوهرة غالية فى دنيا الفن !

وتعددت اللقاءات وتكررت الاختبارات . ومضى أكثر الوقت فى أحاديث عامة عن الفن والحياة . ولاحظت منى أن الأمية تغلب على تفكيره رغم شهرته ونجاحه وأنه كان يمكن استساغته بشيء من التساهل لولا غروره الهرمى الذى لايحتمل . ولاحظت أيضا أنه يعجب بها أكثر مما يعجب بفنها. بل باتت تؤمن بأنه لايكترث لفنها على الإطلاق وأن المســألة من أولها لآخرها مجرد شرك .



وبسرعة هوى على خدها بكفه الغليظة فترنحت
وتهاوت على الأرض

عنــد ذاك تجمعت فى صــدرها أبخرة الغيظ والغضب وخيبة الأمل . ولما قال لها وهو يظن أنه آن له أن يمد يده لجنى الثمرة :

ــ جو المكتب غير مناسب لهذه الأحاديث الطلية فأنا أدعوك للعشاء !

لمــا قال لها ذلك أدركت ما يعنيه وهى تشــعر بالغثيان .

أما هو فاستمر يقول :

ــ يجب أن ترى عشى الخلوى بالعامرية !

وأحست بأنفاسه المشبعة بالتبغ وهى تتردد على خدها فثار غضبها ولطمته على وجهه !.

تراجع فى وقفته حتى استقام عوده ، وتحجرت نظرته وانتفخ خداه بالغضب ، وبسرعة هوى على خدها بكفه الغليظة فترنحت وتهاوت على الأرض . وصاح بها :

ــ تظنين أنك امرأة لا يجوز مســـها فى عرف الليــاقة العصرية ، يا خنزيرة يا بنت الخنزيرة !

قامت مشعثة الشعر ورأسها يدور وهى لا تصدق فصاح بها مرة أخرى :

ــ اخرجى يا عاهر وقصى هذه القصة على أمك ..

ما زال رأسها يدور وتناولت حقيبتها ، وسوت شــعرها ، ومضت نحو الباب ، وصوته يتبعها قائلا :

ــ دعوتي للعشاء ما زالت قائمة.، وتحياتى لأمك !

— ١٤ —

ثار سالم على ثورة جامحة تخطت جميع الحدود . صمم على نبـذ منى واحتقارها ، واعتبرها فتاة مجنونة ، وأن من حسن حظه حقا أنه عرفها على حقيقتها قبل أن يتورط فى الزواج منها .

ولم يقتنع شقيقه الأصغر حامد بثورته فقال له :

ـ ما زلت تحبها يا أخى .

فصاح بغضب :

ـ أبدا ، وسوف تعرف ذلك بنفسك .

وكان حامد يحب شقيقه ويؤمن بأنه يفهمه فقال :

ـ أنت يا أخى برجوازى ويناسبك الزواج البرجوازى !

فتضاعف غضب سالم وقال :

ـ عيبكم الأساسى هو تعلقكم بالمصطلحات ، انتظر وسوف ترى ..

فقال له باشفاق :

ـ إن مركزك القضائى ..

ولكنه قاطعه :

ـ انتظر وسوف ترى ..

وعاد إلى بؤرة قديمة كان هجرها مذ عرف منى زهران . ذهب إلى ملهى « مركب الشمس » بالهرم وهو نصف ثمل . وانزوى فى الحديقة رغم برودة الجو وطلب من النادل أن يدعو سميرة لمشاربته . وسميرة كانت صديقته ، وهى راقصة من الدرجة الرابعة ترقص ضمن مجموعة فى خلفية المسرح عندما يغنى مطرب بالملهى . وهى فى الخامسة والثلاثين ، وبها مسحة جمال ، وجسمها أجمل من وجهها ، ورخيصة الثمن نسبيا ، وقد دهشت لعودته عقب غياب استمر أكثر من نصف عام ، فتظاهرت بغضب لا أساس له ، وقالت له :

ــ رجعت يا خائن ..

وراحا يشربان . ولاحظت أنه ــ بخلاف عادته ــ يشرب بإفراط . وكانت ترتاح إليه لأنه مهذب ولأنه يملك سيارة صغيرة وأخيرا لأنه كريم . وقالت له ضاحكة :

ــ أنت تشرب كالوحش .

فقال لها :

ــ سأنتظرك آخر الليل .

ومع أنها رحبت بذلك فى أعماقها إلا أنها قالت متسائلة مع رغبة فى تأديبه :

ــ كلا ..

وتبادلا نظرة طويلة ، ثم قالت :

ــ مرتبطة الليلة ..

يهتف بضجر :

ـ كلا ..

ـ كلا !

ـ كيف حال بنتك الصغيرة ؟

ـ مع أمى كما تعلم .

فأفرغ كأسه وقال :

ـ عندى فكرة لا بأس بها ..

ـ فكرة ؟!

فتريث قليلا لأنه شعر رغم سكره بأنه مقدم على أخطر خطوة يتخذها فى حياته . وغضب لتريثه فقال :

ـ أرغب ياسميرة فى أن نعيش معا !

فتفكرت قليلا ثم تمتمت :

ـ فيها قولان !

ـ ولكنك لم تدركى مقصدى !

ـ أعتقد أنه واضح .

فقال وهو يركز عينيه فى كأسه :

ـ أريد أن أتزوج منك !

فطالعته بإنكار ثم قالت بحدة :

ـ أنت سكران !

ـ بل رجعت إليك لتحقيق ذلك .

فجعلت تنظر إليه فى ريبة فقال :

ـ ماقولك ؟

ــ أفق !

ــ الليلة إن أمكن !

ثم وهو يتناول يدها :

ــ ستبقى الصغيرة عند والدتك ولكنى سأرتب لها مصروفا معقولا ، لست غنيا ولست فقيرا ..

فتساءلت بدهشة :

ــ أأنت جاد حقا ؟

ــ هيا بنا فى الحال إن شئت ..

فضحكت وسألته :

ــ ماذا جعلك تقرر ذلك ؟

ــ أريد أن أستقر ، أستقر مع امرأة معقولة بلا خداع ، فهل أنت على استعداد لنسيان الماضى وبدء حياة جديدة ؟

فضحكت ضحكة عصبية وقالت :

ــ لا يوجد مأذون مستيقظا فى هذه الساعة ..

فقام وهو يقول :

ــ لا أهمية لذلك ما دام سيستيقظ فى الصباح الباكر ..

— ١٥ —

كان الدكتور على زهران يرنو إلى شقيقته منى بحزن . كان باطنه يغلى ولكن لم يبد فى وجهه إلا الحزن . قال لها :

ــ أنت يا منى فتاة ممتازة وأنا لا أتصور ذلك .

فقالت بأسى :

ــ لننس ذلك .

ــ ولكنى أشعر باللطمة فوق وجهى !

ــ خير من ذلك أن تحدثنى عن مشروع الهجرة ..

ــ الهجرة !

ثم بفتور :

ــ الإجراءات طويلة ولكنى أنتظر .

ــ لا أريد أن أبقى فى هذا البلد يوما آخر .

فقال وباطنه ما زال يغلى :

ــ عيبك أنك شديدة الحساسية ، ما كان يجب أن تقطعى رجلا مثل سالم على فى لحظة غضب ..

فقالت بنبرة تشى بالدمع النابع من جذورها :

ــ لا أريد أن أبقى فى هذا البلد يوما آخر ..

ــ رجل ممتاز ويحبك .

ـــ دعنا من تلك السيرة ..

ـــ إننى تساءل أحيانا لماذا نعتبر أنفسنا على حق دائما ؟

فقالت باسمة :

ـــ لأننا على حق ..

ـــ الهزيمة زلزلتنا ..

ـــ ونورتنا ..

ـــ أتسمحين لى بالاتصال بسالم على ؟

فانتترت قائمة فى فزع وقالت :

ـــ كلا .

ـــ فكرى قليلا .

ـــ كلا .

ـــ ألا تريدين أن ..

فقاطعته بحدة :

ـــ أريد أن أهاجر .

وهز منكبيه ثم ودعها وغادر البيت . مضى إلى صيدلية واتصل تليفونيا بمكتب المخرج محمد رشوان سائلا عنه فكان الجواب أنه يعمل فى استديو مصر . وحاول الاتصال بالاستديو ولكن الرقم ظل مشغولا فاستقل سيارته وانطلق بها بسرعة إلى الاستديو . وهناك ـــ وكانت الساعة العاشرة مساء ـــ علم بأنه غادر الاستديو وأخبره موظف أنه ذهب إلى « جاميكا » لتناول العشاء . ووجه سيارته إلى جاميكا بالطريق الصحراوى . ومضى يجوب حديقتها ويتفقد البهو

ولكنه لم يعثر له على أثر . وقال له المدير إن الأستاذ لم يحضر بعد فمضى يتمشى أمام المطعم . وحوالى الحادية عشرة وقفت سيارة فى الموقف أمام المطعم وتركها رجلان فأشار البواب إلى أحدهما وقال للدكتور على :

ـ ها هو الأستاذ محمد رشوان ..

كان يتقدم مرزوق أنور بخطوات ، ويسير على مهل وهدوء وفى خيلاء بجاكتته الجلدية الطحينية وبنطلونه الكحلى . اتجه الدكتور على زهران نحوه فى هدوء أيضا على ضوء المصباحين المغروسين فى أعلى المدخل فالتفت الرجل إليه فى غير اهتمام ، ولعله توقع أن يسمع كلمة إعجاب أو اقتراح من نوع ما يتصل بعمله . ودون أن يتفوه الدكتور بكلمة ركله فى بطنه بكل قوة عضلاته وأعصابه . انطلق من فم محمد رشوان خوار . حملقت عيناه ، ثم تهاوى ساقطا على وجهه . حدث ذلك بسرعة خاطفة حتى ذهل مرزوق أنور فتجمد كتمثال . وخرج من ذهوله صائحا :

ـ أنت مجنون ؟

وأقبل البواب مهرولا ، وتجمع بعض سائقى السيارات ، أحاط بعضهم بالدكتور وانحنى الآخرون على الأستاذ الملقى . وصاح الدكتور على زهران يخاطب الرجل الملقى أمامه :

ـ أنا شقيق منى زهران يا وغد ..

فانقض عليه مرزوق أنور حتى قبض على عنقه وهو يهتف :

ــ أنت مجنون .. لن تفلت من يدى ..

فنزع يديه بغضب وهو يصيح :

ــ إنه وغد يستحق التأديب ..

وارتفع صوت من بين العاكفين على الرجل الملقى وهو يقول :

ــ مات الرجل .. اقبضوا على القاتل !

ــ ١٦ ــ

ذهبت منى برفقة أبيها إلى مكتب الأستاذ حسن حمودة المحامى بشارع صبرى أبو علم . وقد تذكره الأستاذ زهران فى محنته لا لزمالة قديمة فحسب ولكن لاعتقاده بأنه أحد ثلاثة يعتبرون قمما كمحاميين جنائيين . وكانت حجرة مكتبه واسعة وفخيمة . فاستقبلهما بقامته المديدة ووجهه الأسمر الغامق وعينيه المشعتين ، ثم رحب بالأستاذ زهران ، ووقفت عيناه ــ ثوانى ــ شبه مبهورتين عند منى قبل أن يدعوهما للجلوس ثم يجلس .

وشرع الأستاذ زهران فى قص قصته وسرعان ما قاطعه الأستاذ حسن :

ــ أهو ابنك ؟ .. لم يخطر لى ذلك على بال !

ومضى الرجل فى قصته التى أصبحت قضية حتى فرغ منها وهو يتنهد ، فقال الأستاذ حسن :

ـ البقية منشورة فى الصحف !

ثم وهو ينظر إلى منى مجاملا :

ـ من المؤسف أن قتل من يستحق القتل عن غير جهة اختصاص يعتبر جريمة !

فقالت بصوت ضعيف مقهور :

ـ لم أتصور أن ينتهى الأمر بمأساة طاحنة ..

ـ ثمة مأساة معقولة ومأساة لامعقولة .

ـ وأخى لم يعرف عنه يوما أى ميل للعدوان ..

ـ لو كان خبيرا فى العدوان لما تورط فى جريمة غير مقصودة ..

وطلب منها أن تقص القصة التى بدأت بها المأساة فقصتها عليه بتفاصيلها . سألها :

ـ هل يوجد شهود ؟

ـ كنا وحدنا فى حجرة مكتبه .

وتساءل الأستاذ زهران :

ـ وهل من مبرر لا دعاء الباطل عليه ؟

فقال الأستاذ حسن حمودة باسما :

ـ أنت أدرى بدقة القانون ..

فقالت منى :

ـ واضح أنه لم يقصد قتله .

ـ يجب أن أطلع على ملف القضية أولا ، غير أن المنشور في الصحف يدل على أن الدكتور كان يسعى للقاء القتيل ، وانه بحث عنه في استديو مصر كما بحث عنه في مطعم جاميكا ، ثم انتظره ، ثم كان ما كان ..

ـ ولكن هل يكفي هذا لإثبات أنه قتله عن تعمد وإصرار ؟

ـ كلا ، ولكن نرى هل أصابه في مقتل ؟

ـ حتى لو كان ذلك صحيحا فلا شك أنه وقع مصادفة ..

ـ ولكننا مطالبون بإثبات أي رأي نرتئيه ، ولا تنسى أنه دكتور وأنه ـ في نظر المحكمة ـ خبير بالمقاتل !

وغشي الظلام عيني الفتاة فعاد يقول ملاطفا :

ـ ولكن حول ذلك سيتركز نضالنا ، وعلينا أن نثبت أنه ضرب أفضى إلى القتل ..

فتساءلت وهي تنهار تماما :

ـ والأمل ؟.. ألا يوجد أمل ؟

فقال الأستاذ بصوت رنان :

ـ طبعا !.. وهو أمل كبير .. والله المستعان !

وعاشت منى الأيام التالية في الجحيم . ولم تكد تفارقها عليات وسنية . وكانت تقول :

ـ حتى لو برىء من القتل المتعمد فقد قضى على مستقبله ..

ولم توجد كلمة صالحة للعزاء فمضت تصرخ :

ـ علي اللعنة !.. أنا المسئولة عن كل شيء .

وسعت إلى لقاء شقيقها فى السجن . وبكت بحرارة وجنون . ومن عجب أنها وجدته هادئا مستسلما . وقال لها :

ــ كفى عن البكاء يا منى فلا جدوى منه .

فقالت وهى تنتحب :

ــ ولكنى السبب اللعين ..

فقال بهدوء :

ــ أنت معتدى عليك ، وكان طبيعيا أن تفضى إلىّ بحزنك ، كما كان طبيعيا أن أغضب ..

وغمغم بكلام لم تدركه ثم قال :

ــ ثمة خطأ أعمى لا أدرى عنه شيئا ، قتل الرجل وقضى على ..

ــ أنا الخطأ الأعمى يا أخى ..

ــ هو أقوى منك ومنى ، كفى عن البكاء ..

ــ ليتك لم تغضب يا أخى !

فقال بضجر :

ــ ولكنى غضبت ، وعلى أن أواجه المصير ..

— ١٧ —

عهد بالفيلم إلى المخرج أحمد رضوان فأتم المراحل الباقيه منه محافظا ما أمكن على أسلوب محمد رشوان . وحظى مرزوق أنور بإعجاب المخرج الجديد لدرجة لم يتوقعها فبعثت فيه روح الأمل من جديد . وكان أحمد رضـوان مخرجا ناجحا غزير العقود ، عرف فى ميدانه بسرعة الإنجاز مع الإتقان وحسن التوفيق لدى الجماهير فانفتحت أمام مرزوق أبواب العمل . وقال له أحمد رضوان :

ـ أنت فنان موهوب ، وسأجعل منك الخليفة الحق لأنور وجدى ..

فاهتز مرزوق طربا وحلم بالمجد فعاد يقول له :

ـ ولكن لا تجمد نفسك فى نمط ، النمطية مفيدة ولكن المرونة خـير وأبقى ، والمرونة التى أعنيهـا أن تمثـل الشىء ونقيضه ، الطيب والشرير ، ولك البطولة فى الحالين ..

وتنهد فى حزن وقال :

ـ لم يكن كذلك رأى المرحوم محمد رشوان .

ثم وهو يهز رأسه فى أسى :

ـ كان لطيفا وراح هدرا ! ، أنت تقول إنك تعرف منى شقيقة القاتل ؟

— معرفة سطحية جدا ولكنها صديقة شقيقتى وخطيبتى .
— أتصدق ما ادعته عليه فى التحقيق ؟
— لا أدرى ، ولكن لابد من نقطة تبدأ منها الجريمة !

فهز منكبيه وقال :
— سمعت همسا يقول إنه كانت توجد علاقة جنسية بين القاتل والقتيل !؟
فذهل مرزوق وقال :
— ولكن المرحوم .. أعنى أننى لم أسمع عنه ..
فقاطعه :
— ما علينا ، سيكشف التحقيق عن الحقيقة ، الله يرحمه ، لا يجوز أن يذكر بسوء وهو بين يدى الله !

وكانا يجلسان بمطعم الاستديو فانضمت الى مجلسهما فتاة بلا استئذان فقدمه إليها ثم قدمها قائلا :
— فتنة ناصر ، نجمة جديدة مثلك ، ولكنها لمعت فى سماء الفن منذ عام ..

وكان مرزوق يعرفها من صورها ، كما علم بعلاقتها الخاصة بأحمد رضوان عن طريق المرحوم محمد رشوان . وكانت ذات جمال خاص لا يدرك من أول وهلة ولكنه نافذ الأثر . خيل إليه أنه يوجد قدر من عدم التناسب بين قسماتها ولكن جاذبيتها طاغية . وجسمها يميل للصغر فى جملته ولكنه فى حدوده مليء ورشيق وجنسى إلى أبعد الحدود . وكان أحمد رضوان فى الخامسة والخمسين ، والدا لفتاة متزوجة من موظف فى السلك

الدبلوماسي وشاب مهنـدس فى بعثة فى الاتحاد السوفيتى ، واتسم غرامه بجنـون الكهولة . وفتنة فى الأصـل جامعية ، ومعروف فى الوسط أنها عشيقة لثرى عربى يدعى الشيخ يزيد ، فرش لها شقة فى الدور العشرين بعمارة النيل ، ولم يكن يزور القاهرة إلا فى مواسم أو عابرا . وقال له أحمد :

ـ فتنة موهبة سخية وستعمل معها فى الفيلم القادم ..

وربت على يدها بحنان وقال مخاطبا مرزوق :

ـ ومن مزاياها أنها شقيقة ضابط شـهيد فقد فى حرب يونية ..

وعرض فيلم مرزوق فحقق نجاحا ملحوظا أما هو شخصيا فاعترف به كفنان موهوب وتنبأ له أكثر من ناقد بمستقبل باهر .

وتعاقد معه أحمد رضوان على ثلاثة أفلام فاستقرت الأرض تحت قدميه وعزم على الزواج من عليـات فى أقرب فرصة . وعندما اشترك مع فتنة ناضر فى تمثيل أول الأفلام المتعاقد عليها ، شعر بأنها توليه عناية خاصة ، فتلقى ذلك بحذر شديد حرصا على علاقته الطيبة بأحمد رضوان . وكانا ـ مرزوق وفتنة ـ يستريحان فى حديقة الاستديو بين فترات التصوير حين سألته :

ـ أحق ما يقال عن زواجك ؟

فأجابها بطيبة :

ـ فى أقرب فرصة .

ـ مبارك مقدما .

ثم مستدركة :

ـ ستكون أول وجه جديد متزوج !

ــ أجل .
ــ ولكن ألا تحتاج إلى حرية مطلقة وخاصة فى البداية ؟!
ــ طالت مدة الخطوبة وليس ثمة مايبرر التأجيل .
فسكتت قليلا مستسلمة لبرودة الليل ثم سألت :
ــ وهل خطيبتك من الوسط الفنى ؟
ــ كانت زميلة جامعية وهى الآن موظفة بالشئون الاجتماعية .

ــ أعتقد أنها مطالبة بحكمة سقراط لكى تسعد معك .
ــ يالها من مبالغة .
ومشت قليلا حتى غابت فى الظلام تماما ثم عادت إلى منطقة النور وهى تقول :
ــ توجد فرصة لإنشاء شركة بيننا !
فدهش مرزوق وتساءل :
ــ شركة ؟!
ــ ليس بالمعنى التجارى ، أعنى ثنائية ناجحة ..
ــ سمعت ذلك من الأستاذ أحمد وسعدت به ..
ــ فعلينا أن تتحمس لثنائيتنا !
ــ بكل سعادة من ناحيتى ..
ــ لى الثقة كل الثقة فى رأى أستاذى أحمد ..

ورمته بزهرة بنفسج كانت تفرها بين إصبعيها وذهبت . اضطرب مرزوق . اجتاحته عاطفة سعيدة وآثمة . تذكر عليات فيما يشبه الاعتذار والندم .

— ١٨ —

بدأ حسني حجازى جادا أكثر من المألوف . وقف فى حجرة الجلوس ينظر باهتمام وإشفاق الى منى زهران . ولم تكن تبادله النظر ، عيناها السوداوان شبه مغمضتين مستسلمة إلى مسند الفوتيل الكبير كالنائمة ، تعلوها الكآبة . وقال لنفسه إنها الصديقة الوحيدة التى لم تستسلم لنزواته . والتى لا تستسلم إلا للحب . وهو يذكر كيف زارته أول مرة وهى طالبة بصحبة عليات وسنية مسوقة بحب الاستطلاع ، وكيف شاهدت أفلامه الجنسية المثيرة ولكنها لم تنزلق رغم الإثارة ، فلم تهبه أكثر من الصداقة وكف هو منذ زمن بعيد عن مطالبتها بمزيد . قال :

ـ دعوتك لأنى شعرت بأنك فى حاجة إلى صديق فى محنتك ..

فجرت على شفتيها ابتسامة خفيفة إعرابا عن شكرها فعاد يقول :

ـ دعوتك من قبل ولكنك لم تلبى !

ـ كنت غاية فى الحزن .

فمال نحوها قليلا وقال بحنان :

ـــ على أى حال احمدى ربنا ، حسن حمودة محام قادر وقد أنقذ عنقه من المشنقة !

فقالت بأسى :

ـــ ولكنه سيقضى فى السجن عشر سنوات ، وخسر مستقبله إلى الأبد !

ـــ قضاء أخف من قضاء .

فقالت بعصبية :

ـــ وأنا المذنبة الحقيقية !

ـــ ماذا كان بوسعك أن تفعلى ؟ ، ما فعلت إلا أن شكوت همك لشقيقك ..

ـــ لن يهون قولك من شعورى بالإثم ..

ورفع الرجل كأسا بيده إلى فيه ثم نظر إلى كأس موضوعة على ذراع الفوتيل على كثب من يدها كأنما يدعوها إلى الشراب ، وتراجع خطوات حتى استند إلى حافة البار ، ثم قال :

ـــ فكرى فى الهموم من حولنا تهن عليك همومك .

ـــ لا أظن .

فابتسم متسائلا :

ـــ مصممة على الحزن ؟

ـــ لست حزينة ، إنى أعيش حياتى ولكن بلا طعم !

فهز رأسه الضخم وقال :

ـــ قد يعرض لى عارض حزن ، أتدرين كيف أعالجه ؟ ،

أتذكر آلاف القتلى وما يخبئه الغد من احتمالات ، وسرعان ما يهون علىّ حزنى ..

فرفعت منكبيها فى وجوم ولم تنبس فقال :

ــ وهزتنى ثورة الطلبة من الأعماق ، ثم تذكرت أننا قد ندفن تحت الأنقاض فى أى لحظة ..

فهتفت بحدة مباغتة :

ــ هناك ما هو أدهى وأمر وهو أننا نعيش فى الحقيقة على التسول ..

فضحك حسني عاليا وقال :

ــ يا له من تعبير صادق ومثير .

ــ لم ضحكت عاليا ؟

ــ صدقينى إننى لم أضحك ضحكة واحدة من قلبى منذ ٥ يونية !

ثم مستطردا :

ــ هى مجرد أصوات يا عزيزتى منى .

ــ كيف يهنأ بعض الناس بالنوم ؟

ــ إنهم يضعون على أعينهم نظارات التاريخ السحرية فتتجلى لهم رؤية أخرى ..

ــ ألا ترى تلك النظارات عشرات الألوف من الضحايا ؟

ــ كلا ، ولكنها ترى ما هو أخطر !

ــ أأنت جاد فيما تقول ؟

ــ كل الجد .

ـ إذن فأنت راض ؟

ـ لست من صانعى التاريخ فنظرتى رهن بضعف بصرى وهى مليئة بالشجن والعبث .

وولاها ظهره ليملأ الكأس من جديد فتناولت كأسها وشربت حتى النصف ، ثم تحول نحوها قائلا :

ـ اشربى ، يلزمك ثلاث كئوس على الأقل .

فابتسمت لأول مرة وقالت :

ـ بك حنين ملحوظ إلى الوطنية فهل قمت بواجبك ؟

فصب الشراب فى جوفه دفعة واحدة ثم قال :

ـ فى مثل سنى يكفى أن أحمل الكاميرا وأزور الجبهة لأقوم بواجبى !

ـ ثم ترجع إلى بيتك السحرى !

ـ هنا أنتهب لذات عابرة بدافع الذعر والحزن ..

ـ سعداء هم الكهول !

ـ ما أتعس البلد الذى يحسد فيه الكهول على كهولتهم !

وتبادلا نظرة طويلة لا تخلو من عذوبة ، ثم قال :

ـ دعوتك لأسليك فانظرى ..

فقاطعته بهدوء :

ـ الأستاذ حسن حمودة يرغب فى الزواج منى !

فذهل حسنى حجازى ، صمت مليا ، ثم هتف :

ـ إنه يماثلنى فى السن !

فهزت رأسها نفيا وقالت :

ـ إنه فى الأربعين !

ـ أراهن على أنك ستوافقين !

ـ لم تتوهم ذلك ؟

ـ ربما احتجاجا على الحب الذى أعطيته أعز ما تملكين ثم لم تجنى منه إلا التعب ..

فقالت بنبرة ساخرة :

ـ سالم على تزوج من مومس !

ـ لم يعد لهذه الكلمة من معنى !

فتساءلت وهى تتنهد :

ـ أليس من المضحك أن يفعل اثنان بنفسيهما ما فعلنا وهما يتبادلان الحب ؟

ـ اشربى كأسك وتزوجى من حسن حمودة فلا خير فى أن تبقى وحيدة لتجترى أحزانك حتى تقتلك ..

وحدثها حديثا مطولا عن حسن حمودة وأسرته الصعيدية العريقة وأرضه التى صفيت فى الإصلاح الزراعى ونبوغه فى المحاماة ، ثم سألها :

ـ هل شاهدت آخر أفلامى ؟

فضحكت ، على حين اتجه هو نحو غرفة العرض .

— ١٩ —

كانت جلسة واجمة لا تبشر بخير .. ها هى قهوة الانشراح عقب منتصف الليل ولكنها لا تعد بسرة واحدة . دخن حسنى حجازى نارجيلته فى صمت شامل . اختلس من عبده بدران نظرة فرآه غارقا فى الأفكار . وفى الركن تحت النصبة قرفص عشماوى وهو يرسم على البلاط خطوطا وهمية بإصبعه . وقال لنفسه : ليلة ثقيلة وسيكون لليالى المقبلة طعم العلقم . والتقط عبده بدران نظرة من نظراته فقال :

ــ وهكذا ألغيت الأفراح !

فقال حسنى حجازى مواسيا :

ــ تأجلت لا ألغيت !

ــ ربنا يسمع منك !

ــ ربنا كبير يا معلم عبده .

فقال عبده بدران بأسى :

ــ لما لم يحضر فى ميعاده دق قلبى بعنف ، وقبل ذلك رأت أمه حلما فظيعا .. .

ــ جرح بسيط بإذن الله !

ــ من أدرانى ؟ ، لم يسمح لى فى زيارته بأكثر من دقيقة ،

لم أر منه شيئا ، اختفى الوجه والرأس والعنق تحت الشاش تماما !

ـ إجراء طبى ليس إلا !

فتنهد الرجل وقال :

ـ وكنا نستعد للاحتفال بزواجه هو وأخته عليات .

ـ سيتم الاحتفال بعد أسبوع أو بعد شهر !

وساءل حسنى نفسه ترى أهذا هو حال الآباء والأمهات فى جميع الأمم أم أنه توجد شعوب أخرى مشبعة بروح القتال والجهاد ؟. وهل زيف التاريخ حكاية البطولات فلم تصلنا على حقيقتها ؟. أهو عيب فينا آم هى الطبيعة البشرية فى كل زمان ومكان ؟ وإذا كان ذلك كذلك فكيف أمكن سوق الجماعات البشرية إلى حرب فى إثر حرب ؟ ! ، ما أعظم الفارق بين صورة التضحية فى جريدة يومية أو كتاب تاريخ أو ديوان شعر وبينها فى مقهى أو بيت أو حارة ! . ومع ذلك لم يقبـــل البشر على امتهان مهنة وهى كره لهم مثل الحرب !.

ورفع عشماوى رأسه من فوق ركبته وقال :

ـ نحن مساكين يا أستاذ .

فصدق عبده بدران على قوله قائلا :

ـ أجل ، نحن مساكين .

فقال حسنى :

ـ ماذا أقول ، لو كنت شابا لوجب أن أتحمس للحرب !

فقال عشماوى :

ــ بترت ساقا ابن جارتنا !

ــ هى الحرب يا عشماوى ، ووطنك محتل !

فقال العجوز بغضب :

ــ أود عندما أرى شخصا ضاحكا أن أبصق على وجهه !

ــ ماذا تظن ؟ ، الحرب تشدنا خطوة فخطوة ، وإذا استعر لهيبها فلن ينجو من نارها مخلوق ، فى الجبهة كان أم فى داره .

وساءل نفسه مرة أخرى ماذا يقول الرجل لو علم بما يدور فى مسكنه الخيالى ؟ . اللعنـــة . ماذا تريدون ؟ . لم يبق على النهاية إلا القليل . والحياة عزيزة وحبها معقول . وأنت يا مصر عزيزة وحبك لا معقول ! ، لا شك أنه توجد نقطة فى العلو تذوب فيها الفوارق وتنمحى الانفعالات المهلكة . وتنغص عليه صفوه تماما . وحكم على نفسه بالغباء والحماقة . وقال إنه ما زال ينقصه قدر مخيف من الغباء والحماقة ليكون من عظماء التاريخ . شعلة الحياة والجنون والغموض الخلاق .

وقال عشماوى :

ــ من العدل أن تتوزع المصائب بالمساواة الحقة .

ــ صدقت .

وقال عبده بدران :

ــ أنا لا أفهم !

فرمقه حسنى بنظرة استفهام فقال :

ــ أيام الكروب تتابع كالمطر ..

ــ نحن قلب العالم فماذا تتوقع ؟

ـ الاحتلال ، الاسـتقلال ، ١٩٥٦ ، اليمن ، ١٩٦٧ ، الاحتلال !

فقال وهو يدارى ضجرا بدأ يزحف :

ـ غدا يخلق وطن جديد !

ـ قلبى غير مطمئن !

ـ لأنك راجع من المستشفى بعد التأهب للاحتفال بفرح :

ـ آه يا بلدى .

فقال عشماوى :

ـ بلد الأولياء والصالحين !

ثم بعنف استرد به بعضا من وحشيته القديمة :

ـ يا عرب !

وقال حسنى لنفسه للمـرة الثالثة ما أشق ما تطالبنا به الحيـاة ، الضعف والقـوة ، الحماقة والحكمة ، النعـومة والخشونة ، الجهل والعلم ، القبح والجمال ، الظلم والعدل ، العبودية والحرية ، وأين أنا من هذا كله ؟ ! ، لا همة ولا موقع يصلح للعمل ولا بقية من عمر ، ولكنى أحبك يا مصر فمعذرة إذا وجدتنى مع حبك أحب الحياة فى ساعات وداعها الحمقاء !

— ٢٠ —

وقفت السيارة أمام عش سقارة . غادرها فى وقت واحد الأستاذ حسن حمودة ومنز زهران . مضيا إلى خميلة فى الناحية الجنوبية من الحديقة فجلسا تحت مصباح خافت يرسل نورا أزرق من خلال أوراق اللبلاب . جميلة كعادتها ولكن ثبتت فى أعماق عينيها نظرة حزينة . وكان يعتبر أنه تخطى العقبات الأساسية فتبدى مرحا بقامته الطويلة وبشرته العميقة السمرة وثقته بنفسه التى تلازم حركاته وسكناته . ونظر إليها طويلا . وجعل يبتسم وكأنما يدعوها إلى الابتسام أيضا . وقال وهو يتنفس بعمق هواء الليل المعبق بروائح نباتية :

ــ المكان هادىء ، بعيد عن الدنيا ، ينتمى إلى عالم آخر .

فهمست :

ــ نعم .

وشعرت بأنها جاوزت الحد فى الاعتراف بالسعادة فى فاستدركت :

ــ ولكننا نحمل فى قلوبنا هموم العالم الأول .

ــ لك نصيب موفور من الهموم ولكنك لست أتعس من على سطح الأرض ، هل تدركين معنى خسارة ألف فدان فى ثانية

واحدة ؟ ، ومصرع أب مهيب بأزمة قلبية ، وتلويث سمعة أسرة كبيرة كريمـــة شاركت فى حياتنـــا الوطنية منذ الثورة العرابية ؟..

وترددت وقتا قبل أن تتساءل :

ــ ترى ألا تعلم بأننى لا أعد صديقة للإقطاع ؟

فابتسم بسماحة وقال :

ــ لا يدهشنى ذلك بطبيـــعة الحال فأنت من جيل الثوره ولكن لعلك لا تعدين نفسك عدوة لثورة الطلبة ؟

ــ هذا أمر مختلف !

ــ ليكن ، ولنعد إلى همومك الحقيقية ، فأقول لك ألا ذنب عليك مطلقا !

ــ ولكننا كما ترى أما هو ..

فقاطعها بقوة :

ــ أكرر ألا ذنب عليك ..

وأدنى وجهه حتى انعكس الضوء الخافت على جناحى أنفه وقال :

ــ ستظل القبور مكتظة وكذلك المستشفيات ولن يمنعنا ذلك من أن نأكل ونشرب ونتزوج !

وتنهدت بصوت مسموع وتمتمت :

ــ كنا على وشك الهجرة !

فقال ضاحكا :

ــ شدما تمنيتها ولكن بلا أمل ، وعلى أى حال فخير لنا أن نختار موضوعا آخر للحديث !

فواصلت حديثها بإصرار :

ــ وقيل لنا تفكران فى الهرب وسفينة الوطن تواجه الشدائد ؟

ــ آه .. أعترف لك بأننى نشأت وطنيا ولكننى لم أعد أبالى شيئا ، ساعدينى من فضلك على تغيير الموضوع .

ــ ألا يهمك أن ينتصر الوطن ؟

فضحك يائسا وقال :

ــ يهمنى أن نعيش فى سلام وسعادة ، فإن تحقق ذلك عن طريق النصر فأهلا به وسهلا ، وإن تحقق عن طريق الهزيمة فأهلا بها وسهلا !

فنظرت إليه بذهول وقالت :

ــ لا أفهم !

ــ لك العذر ، ولكنى جئت بك إلى هنا لأنى أحبك ..

الواقع أنه كان يريد أن يقول أكثر من ذلك ، وفى الموضوع الذى يتهرب منه . وقال لنفسه لا مهرب من السياسة فهى كالهواء . وقال :

ــ لو أنهم انتصروا فى حرب يونيه فماذا كان يفعل أمثالنا ؟ فالهزيمة رغم شرها لاتخلو من بركة للمغلوبين على أمرهم !

صمتت منى . خيل إليه أنها لا تستطيع هضم قوله ، وأراد أن يؤكد رأيه بنغمة جديدة ، رقيقة نوعا ، فقال :

ـ الوطن هو الأرض التى يسعد فيها الإنسان ويكرم .

ـ وهل نسعد ونكرم إذا هزمتنا إسرائيل ؟

ـ فلم يستطع أن ينبس بكلمة . فنفخت فى ضيق وقالت :

ـ على أى حال فلن أرميك بحجر ما دمت قد عزمت يوما على الهجرة .

وجاء النادل متمهلا فأمر ـ بعد مشاورة ـ بزجاجة بيرة وحمام مشوى ، ثم قال بعد اختفاء الرجل فى ظلام الحديقة :

ـ لقد رميت بألف حجر !

ثم قال بنبرة وعظ وإرشاد :

ـ كلما اشتد البلاء حق للإنسان أن يتفانى فى البحث عن السعادة .

ـ رأى غريب !

ـ ولكنه طبيعى وحقيقى ، ولا شىء كالهـــم يمتص من السعادة رحيقها الشهى !

فقالت منى بأسف :

ـ لى صـــديقتان عزيزتان ، توقفت مشروعات سعادتهما بسبب الحرب ..

وساءل نفسه كيف تتملص من هذه اللعنة ؟ . وروت له مأساة عليات وسنية وهو يتظاهر بالانتباه والاهتمام . وقال

لنفسه إنها شديدة المراس ولكنها ستكون زوجة ممتازة . ولكن ماذا أبغى من ورائها ؟. لا حنين إلى الأبوة ولا إلى الاستقرار ولا إلى الخلود ولكنى أريد الحب !. ورفع قدحه وهو يقول :

ــ فى صحة زواجنا القريب !

ــ ٢١ ــ

فى زيارة الفنانين للجبهة لم تسمح فتنة ناضر لمرزوق أنور بمفارقتها دقيقة واحدة . بدأت الرحلة مع الصباح الباكر . وتقرر السفر إلى بورسعيد لهدوئها النسبى بالقياس إلى بقية المناطق المتفجرة المشتعلة . واختار منظمو الرحلة طريق رأس البر ــ رغم طوله ــ لموقعه البعيد عن مرمى مدفعية العدو . واطمأن الجميع إلى أنهم سيستمتعون بسفر آمن وصحبة هنية . وسخرت فتنة فى نفسها من أستاذها أحمد رضـــوان الذى تخلف عن الرحلة ، معتذرا بمرضه ، متأثرا فى الواقع بجبنه وإيثاره السلامه بأى ثمن . ووصلوا إلى بورسعيد فى الظهيرة فدعوا من فورهم للاجتماع بالمحافظ . وتبودلت كلمات الترحيب من جهة والحماس من الجهة الأخرى ، ثم تقضت ساعات فى زيارة بعض الثكنات فى المدينة وبعض المواقع فى الجبهة . تلاقت الأيادى فى مصافحات حارة . وتبودلت النظرات فى إعجاب ومحبة . وأحاط الضباط

والجنود بفناناتهم وفنانيهم المفضــلين . وتذكرت فتنة شقيقها الفقيد فدمعت عيناها ، كما تذكر مرزوق صاحبه إبراهيم عبده الذى يرقد فى المستشفى بين الحيـــاة والموت . ورجعوا إلى بورسعيد عند الأصيل فتجمعوا فى استراحة المحافظة أما فتنة فاقترحت على مرزوق أن يتجولا قليلا فى النواحى القريبة من المدينة . سارا فى شارع طويل عريض يبدأ من الميدان أمام مبنى المحافظة . وعقب دقائق معدودات انفصلا تماما عن الحياة التى يضج بها الميدان بما فوق سطحه من سيارات وجنود وموظفين . غاصا فى خلاء شامل وغرقا فى صمت مروع . لا حركة ولا نأمة ولا ظل لإنسان أو حيوان . العمـــارات والبيوت تقوم على الجانبين مغلقة النوافذ والأبواب كأن لم يطرقها حى ، نائمة أو ميتة أو هى هياكل ومشروعات لم تنفخ فيها الحياة بعد . وتاقت الأعين لرؤية أى شىء ، وتلهفت الآذان على سماع أى صوت ، نافذة مفتوحة أو باب موارب أو غسيل يرفرف فى شرفة أو طفل يصرخ أو قطة تموء أو كلب ينبح ، كلا ولا ورقة يدفعها الهواء أو عقب سيجارة ملقى أو قمامة مكومة تحت الطوار ، أى شىء ، أى شىء أى ، أثر لإنسان . وهمست فتنة :

ــ إنه كابوس .

فردد مرزوق :

ــ نهاية العالم .

ــ قلبى .. لا أدرى كيف أصف مشاعرى .

ــ تجربة جديدة ومشاعر جديدة .

ــ يخيل إلى أنى تعيسة أو سعيدة جدا وأحلم بالرجوع إلى بطن أمى .

ــ أشعر بأنى حر ، حرية كاملة ، من الحضارة والتاريخ .

ــ هل يمكن أن نجن فجأة ؟

ــ وممكن أن نحادث الأرواح !

ووجدا نفسيهما أمام مدخل كازينو . مفتح الأبواب وبلا جليس ، ووقف صاحبه ــ فيما بدا ــ فى مقدم التراس مرتديا بلوفر وبنطلونا ومشمر الساعدين . منظر مفاجىء مذهل ولا يصدق .

ــ لعله مفتوح بأمر المحافظ .

ــ لعله .

ونظرت فتنة إلى الرجل فحياها بابتسامة عرفان فسألته :

ــ ممكن نشرب فنجال قهوة .

ــ أو أى شراب ..

جلسا فى أقصى عمق التراس بعيدا عن مرأى الطريق الخالى . وجاءت القهوة فراحا يحتسيانها بارتياح ، وقالت :

ــ بقدر ما سعدت بين الجنود بقدر ما جننت هنا ..

ــ حديثهم مؤثر ولهفتهم على القتال واضحة .

ــ أجل . لا أتصور كيف يواجه الناس الموت !

ــ إنه جو وعادة وعقيدة ، وهذه هى المشكلة .

ــ وراء ذلك هزيمة خاطفة لم تهضم بعد .

ــ ولعلهم أفاقوا ــ مثلنا ــ كالمجانين !



أشعر بأنى حر ، حرية كاملة ، من الحضارة والتاريخ

ـ ليجدوا كل شيء مثل هذا المقهى الخالى .

وكانت شاحبـة الوجه . وذهبت إلى دورة المياه . ورجعت باسمة . وجدته يدخن سيجارة بعمق فقال لها :

ـ قرأت اليوم أن أخذ النفس بعمق سبب رئيسى فى إصابة الشخص بسرطان الرئة !

ـ أتصدق ذلك ؟

ـ لم تعد لى ثقة بما ينشر فى الصحف .

فسألته مداعبة :

ـ صف شعورك عندما تعطل مشروع زواجك ؟

فسألها متظاهرا بالاستياء :

ـ أتسخرين من المصائب ؟

فقالت بجرأة :

ـ أعترف بأنى سعدت بذلك .

فتورد وجهه وقال وهو يقوم :

ـ أنا ذاهب إلى دورة المياه .

وذهب مسرعا ، وعاد وقد غسل وجهه ومشط شعره فسألته ضاحكة :

ـ ماذا فعلت ؟

ـ لعنت زماننا !

ـ ولكنك نجم !

ـ الفن مهرب كالهجرة التى أصبحت موضة هذه الأيام .

ـ لا أحب الفلسفة .

فقال بمرارة :

ـ أنا معفى من التجنيد ولكن لم لا أتطوع مع الفدائيين ،

فقالت بسخرية :

ـ الفنان جندى أيضا .

فقال بنفس المرارة :

ـ الحق أنى كفرت بكل شىء .

ـ ولكنك ترغب فى الزواج !

ـ ماذا تتوقعين عندما يتمخض الجبل عن فأر ؟

فصفرت برشاقة ثم سألته :

ـ متى نرجع إلى القاهرة فى تقديرك ؟

ـ حوالى الفجر .

فقالت ضاحكة :

ـ إنى أدعوك إلى السحور .

فتورد وجهه وقال :

ـ لك رجلان ، ألا يقنعك ذلك ؟

ـ أحدهما يقوم بالرعاية والآخر بالأستاذية فمن لقلبى الخالى مثل هذه المدينة ؟

وقاما ليغادرا المكان فقال :

ـ أنا رجل فى حكم المتزوج .

فقالت بتحد :

ـ لا تكابر ، أنت ملكى أنا ، ألم تدرك ذلك بعد ؟

— ٢٢ —

كان مرزوق أنور واقفا فى حديقة الاستديو فى فترة استراحة عندما وجد أمامه ــ على غير ميعاد أو توقع ــ سنية شقيقته وعليات خطيبته . ارتبك وشعر بأنه وقع فى مأزق . وكان عليه أن يتمالك نفســـه فتمالكها ومد يده للمصافحة وهو يغمغم بكلمات ترحيب مخنوقة لم تسمع . وأخرسهم الصمت وقتا ، وكادوا يستسلمون له إلى ما لا نهاية حتى خرقته سنية فقالت وهى متوترة الأعصاب :

ــ ليس العثور عليك بالميسور فى هذه الأيام .

انقطع عن بيته تماما منــذ عشرة أيام فلم يدر ماذا يقول . ودست سنية يدها فى حقيبة عليات فتناولت خطابا وسألته :

ــ أهذا خطابك ؟

فأحنى رأسه ، لم ينبس ولم يعترض ، فقالت سنية :

ــ مخجل مؤسف بلا حدود .

فخرج من صمته متمتما :

ــ أشاركك عواطفك .

ــ أنت تقول ذلك !

ـ أجل ، تعـذبت طويلا ، ولكن لا يمكن أن تقوم حياة كريمة على أكذوبة ..

فتساءلت عليات بصوت متهدج :

ـ تعتبر الآن ما كان بيننا أكذوبة !

فقال برقة وحزن :

ـ تقديرى لك بلا نهـاية ، كذلك خجلى منـك ، ولكنه قضاء لا حيلة فيه ..

فسألته سنية بامتعاض :

ـ أيموت حب كبير فى دقيقة ليحل محله حب جديد ؟

وهتفت عليات :

ـ شىء حقير جعلنى أعتقد بأننى كنت بلهاء .

فقال :

ـ إنى آسف ، لا حيلة لى ، وأنت شابة جميلة وسيبتسم لك كل شىء .

فقالت سنية :

ـ قل إنها نزوة أو مصلحة ..

فهز رأسه بأسف وقال :

ـ هى ليست كذلك .

فقالت عليات بعصبية شديدة :

ـ يجب أن أذهب .

فقال لها بتوسل :

ـ اغفرى لى ذنبى .

فصاحت رغم غرابة المكان :

ـ يحق لى أن أشكر الحظ الذى كشف لى عن حقيقتك ..

وتهدج صـــوتها منذرا بالبكاء فابتعدت عن المكان حتى اختفت فى الظلام . عند ذاك قالت سنية بلهجة قاسية :

ـ يا للعار !

فرفع منكبيه مستسلما ، ثم قال مغيرا وجهة الحديث :

ـ أبعدنى العمل المتواصل عن البيت ولكننى سأزوركم فى أول فرصة .

فقالت ساخرة :

ـ تكاليف الفن باهظة فيما يبدو !

فتجاهل سخريتها قائلا :

ـ زرت إبراهيم فى المستشفى ولكن تعذر على محادثته ..

فقالت وهى تحنى رأسها وفى تأثر بالغ :

ـ لعلك لم تعلم بأنه فقد بصره !

فصـــعق لحظات فى انزعاج حقيقى على حين صـــدرت عن الفتاة زفرات بكاء .

ـ فقد بصره ؟!

ـ أجل ..

ـ نهائيا ؟

ـ طبعا .

ـ وهل عرف الحقيقة ؟

ـ أجل .

وساد الصمت فوضح صوت النسيم فى غصون الأشــجار ثم تمتم :

ـــ آسف على حظك يا سنية ..

ـــ هو على أى حال خير من حظ عليات !

ـــ وماذا قررت ؟

ـــ يا له من سؤال ، سأتمسك به إلى ما لا نهاية ..

فتساءل بدهشة :

ـــ أتعنين ما تقولين ؟

ـــ بكل توكيد .

ـــ لن يهملوه من الناحية المالية ولكن ..

فقاطعته :

ـــ قدرت كل شيء ثم اتخذت قرارى .

فتردد قليلا ثم قال :

ـــ أرجو أن يكون قرارك نتيجة لتفكير سليم لا لفورة عاطفية زائلة !

ـــ إنى أعرف نفسى أكثر مما تتصور !

ـــ إذن فتقبلى صادق تمنياتى !

فتساءلت مغيرة الحديث بدورها ومرجعة إياه إلى مجراه الأصلى :

ـــ ألا يمكن أن تعدل عن قرارك فيما يتعلق بعليات ؟

فقال بهدوء وتصميم :

ـــ كلا للأسف !

ــ إنك تفرط فى حب حقيقى .

ــ سنتزوج فى أقرب فرصة .

وفصل الصمت بينهما مرة أخرى حتى قال :

ــ إنى معجب بك !

فقالت وهى تهم بالذهاب :

ــ ليتنى أستطيع أن أقول ذلك لك !

ـ ٢٣ ـ

جلس حسنى حجازى على الديوان الأوسط تحت النجفة فى شبه استلقاء وهو يراقب المخرج أحمد رضوان فى ذهابه وإيابه أو وقوفه القلق مستندا بكوعه إلى حافة البار . وقال له :

ــ اجلس واشرب واهدأ ..

فهتف المخرج بحنق :

ــ لن أجد مشاركة وجدانية عند أحد !

فابتسم حسنى حجازى . وقال لنفسه إن الجنون هو الطابع المميز لهذه الأعوام . وتذكر أنه أحب مرة واحدة فى حياته ثم نسى الحب تماما . هل يقضى عليه بأن يحب من جديد وأن يتوله ويجن وهو يتعثر فى الحلقة السادسة ؟.

وقال أحمد رضوان بغضب :

ــ طالما لاحظت أشياء وتغاضيت عنها ، ثم ظننتها نزوة عابرة !

فقال حسنى حجازى برقة :

ــ يا عزيزى أحمد دعنى أذكرك بذلك الرفيق الرهيب الذى نسميه الزمن !

ــ إنى أقوى من بغل .

ــ اجلس واشرب كأسا .

ــ إنى أفكر تفكيرا جديا فى قتلها ..

ــ اسمعوا ماذا يقول الزوج القديم والأب الوقور !

فقال بتقزز :

ــ الزواج والأبوة لا يمنعان من الحب ولا من القتل ..

ــ آه لو جلست وشربت !

فضرب الأرض بقدمه وقال :

ــ واتفقا على الزواج ، الزواج مرة واحدة ، أتعرف ماذا يعنى هذا ؟ ، أن تخسرنى أنا والشيخ يزيد فى آن ، الشيخ يزيد الذى نقلها من بيت قديم بشارع الصقلبى إلى عمارة النيل ، وأنا الذى خلقتها !

فقال حسنى حجازى ملاطفا :

ــ ربما أتيح لنا أن نخلق ولكن لن يتيسر لنا التحكم فى مخلوقاتنا إلى الأبد ..

ــ المجنونة بنت المجنونة ، ألا تدرى بأن نورها سينطفىء وأنه لن يجد من يتعاقد معه على عمل ؟

ـ قم برحلة فى ربوع أوروبا ..

ـ على الرحلة وعلى أوروبا اللعنة !

ـ إنى حزين عليك أيها الزميل القديم ..

ـ أليس عندك دواء خيرا من ذلك ؟

ـ عندى مأساة مماثلة ، فأنا أعرف خطيبة مرزوق الأولى ، وهى تتألم مثلك تماما ..

فقال بمرارة :

ـ ستشفى من دائها فى ساعة أو ساعة ونصف .

فضحك حسنى على رغمه وقال :

ـ إذن فأنت العاشق الوحيد فى هذا الوطن !

فتنهد أحمد وقال :

ـ الله يحرقها كما تحرقنى ، الحق أنى لا أتصور الحياة بدونها .

ـ صبرك ، إنها متقلبة الأهواء ، وأراهن على أن هذا الزواج لن يعيش أكثر من أشهر !

ـ وما على إلا الصبر والتألم !

ـ اجلس واشرب ..

ـ ليس لديك إلا النصائح المحفوظة ..

ـ ماذا بوسعى أن أفعل ؟

ـ بوسعى أنا أن أقتل ..

ـ كلا ، لست من فصيلة سفاكى الدماء ..

فقال بحنق من تطارده ذكريات مذلة :

ــ حتى الزواج اقترحته عليها ..

ــ الله معك !

ــ وماذا كان جواب العاهرة ؟ ، إنها قررت الزواج أيضا ولكن من الآخر !

وكور قبضته مهددا واستطرد :

ــ إنهم يقيمون الاستعدادات للوقاية من الغارات الجوية ، ويتوقعون حربا شاملة ، عظيم ، إنى أتنبأ بكارثة ستحيق بهذه الأرض اللعينة ..

وتذكر حسنى اللون الأزرق الذى يطلون به النوافذ والمصابيح ، وقوائم الطوب الأحمر أمام الأبواب ، فانقبض صدره . وقال لنفسه إن عزاءه الوحيد فى الحياة يتركز فى مسكنه الجميل الحافل ، فكيف تمضى الحياة إذا تهدم ، كيف تمضى الحياة إذا وجد نفسه بين المهجرين فى معسكر من الخيام ؟. وقال للرجل :

ــ أنصحك بالقيام برحلة إلى الخارج عقب الإنتهاء من فيلمك ..

فتأوه أحمد وهو يستدير نحو البار ليملأ كأسا وقال بمرارة :

ــ إنى بحاجة إلى رحلة طويلة جدا .

— ٢٤ —

دق جرس التليفون على مكتب منى زهران فكان المتكلم سالم على . رجاها بكل جدية واحترام أن تقابله « دقائق » فى دار الشاى الهندى أو فى أى مكان تفضله . واعتذرت من ناحية المبدأ فألح عليها إلحاحا شديدا . سألت عن السبب فقال إنه لا يستطيع أن يفصح بما لديه فى التليفون ولكن لديه ما يقوله وهو هام وخطير . وذهبت إلى الموعد وهى فى غاية من الضيق والقلق . وتقابلا وتصافحا وجلسا معا . ولاحظت من النظرة الأولى أنه ليس على ما يرام ، وارتاحت لذلك ولكنها لم ترتح لارتياحها . فقد من وزنه قدرا ملموسا ، وخبا نور عينيه ، وشحب لونه . وقرأت فى عينيه انعكاس صورتها فخيل إليها أنه لاحظ أيضا تغيرا استوقفه ، فهل صبغتها الأحزان بلونها القاتم وهى لا تدرى ؟. وشكر لها « تفضلها » بالحضور فصارحته بأنها لا تريد أن تبقى أكثر مما يجب . أحرجته الإجابة قليلا ولكنه كان على أى حال يتوقعها ، فقال :

ـ منذ آخر لقاء تلقى كلانا تجارب قاسية ، وكم وددت أن ألازمك فى محنتك !

فلم تعلق بحرف فقال :

ـ واتسمت تصرفاتي طيلة تلك الفترة بحماقات لا وصف لها !
فلم تنبس أيضا ، فواصل حديثه :
ـ أقدمت على زواج كأنه أسلوب من أساليب الانتحار .
فقالت ولو أنها سرعان ما ندمت على قولها :
ـ فاتني أن أهنئك في وقتها !
فازدردها متجاهلا وقال :
ـ وعلمت أنك ستتزوجين قريبا ؟
ـ جدا !
وكان جياشا بانفعالات يخشى ألا يسيطر عليها فصمت قليلا لينظم تشتته ثم قال :
ـ معذرة ، أود أن أسألك هل تتزوجين عن حب حقيقي ؟
فتساءلت باحتجاج :
ـ بأي حق ؟
ـ لا حق لي مطلقا ، ولكنني تعلمت عن تجربة أن أي تصرف مستهتر يمس حياتنا فهو يتمخض عادة عن كارثة .
ـ ثوب الواعظ لا يناسبك بتاتا !
فتنهد بعمق واعترف قائلا :
ـ مني ، أحبك ، ما زلت أحبـــك كأول يوم ، لا حياة لي بدونك ..
فرمته بنظرة ازدراء وغضب ، فقال :
ـ ماذا فعلت بنفسي ؟، تزوجت من راقصة تعيسة ، لماذا ؟ ، بصراحة أعتبرك المسئولة !

ــ مسئولة ؟ !

ــ لم ترعى حبنا بما يستحقه من احترام ، تجنيت عليه أنا بعنادى السقيم وطعنته أنت بكبرياء جاوز الحد ، هكذا يستهين بعض الناس أحيانا بسعادتهم الحقيقية !

فقالت وهى تقطب لتضفى على وجهها قسوة تدارى بها انفعالاتها :

ــ ما الداعى إلى نبش أشياء قد ماتت وشبعت موتا ؟

ــ لا ينبغى لها أن تموت .

ــ ولكنها ماتت بالفعل !

ــ لا أصدق أن الموت يجوز عليها .

ــ هذا وهمك أنت وحدك !

ــ أما أنا فلم ألق إلا العذاب حتى حررت نفسى بالطلاق ..

نظرت بعيدا كأن شيئا استرعى بصرها ولم تعلق ، فقال :

ــ انكشف زواجى عن لعبة سخيفة ، أدركت أننى لا يمكن أن أواصل الحياة مع المرأة المسكينة ، فلا حب يجمعنا ، ولا شىء مشترك ألبتة ، ماذا أقول ؟ ، إنها امرأة سيئة الحظ ، أفسدتها حياة الليل وجففت ينابيع الإنسانية فى قلبها ، سلسلة متصلة من العادات الجهنمية ، وإدمان قاتل للأفيون !

ــ لا أدرى لم تحدثنى عن ذلك ؟

ــ لأنى أحبك !

وانتظر دقيقة حتى تستقر الكلمة فى وعيها ثم استطرد :

ــ إن يكن للحب عندك قيمة فيجب أن تصغى إلى ، وأنا

أعلم أنك تقدسين الحب ، إن كنت تحبين الرجل فمعذرة عن تبديد وقتك . وأما إذا أردت أن تملئى بالزواج فراغا فلا شيء يملأ فراغ الحب إلا الحب نفسه .

فسألته بحدة :

ـ ماذا تريد ؟

ـ أن نرجع إلى حبنا ..

فضحكت ضحكة فاترة وقالت :

ـ يا له من مطلب مضحك !

ـ هو مطلبى الوحيد فى الحياة ..

فرفعت منكبيها استهانة ولم تنبس لتطمئن إلى سيطرتها على انفعالاتها ، فقال :

ـ إن الأمل يضيء قلبى كالإلهام ..

فقامت قائلة :

ـ آن لى أن أذهب .

فتبعها وهو يقول :

ـ لن أسلم بخيبة مسعاى ، مع السلامة ، ومعك قلبى إلى الأبد ..

— ٢٥ —

لم يبق فى الحجرة إلا إبراهيم ، بمجلسه فوق الكنبة ، بين سنية خطيبته وعليات شقيقته . ارتدى جلبابا فضفاضا ، برز من طوقه رأسه الحليق ووجهه النحيل الشاحب والنظارة السوداء التى أخفت عينيه . ذاك أول يوم رجع فيه إلى بيته ، حيث تلقى سيلا من كلمات العزاء والتشجيع ، ثم أخليت الحجرة إلا من ثلاثتهم ، فأسند رأسه إلى الجدار البارد وأخذ يستحوذ على إرادته . بالنسـبة إليه انتهى القتـال وانطوى تاريخ واختفى النور إلى الأبد . عندما انقضت عليه الحقيقة قال « ليتنى مت » لم يعد يرددها ، وسرى إلى قلبه دفء عجيب فى بيته ، ولم يعد يشك فى أن الحى خير من الميت ، ولم تكف سنية عن الكلام ، قالت ضاحكة :

ـ لا يأس مع الحياة ،كم من مرة كتبتها أو رددتها ، ونسيت للأسف قائلها ، ولكنى لم أدرك معناها إلا اليوم ..

ابتسم لصوتها المحبوب فعادت تقول :

ـ سأقرأ لك ، وستتعلم القراءة على طريقة بريل ، وستشق لنفسك طريقا جديدا !

ختمتم :

ــ سنية ، أنا ممتن جدا ، أنت ملاك ..

وتردد قليلا ثم استطرد :

ــ ولكنى أعفيك من أى تعهد سابق !

وضعت سبابتها على شفتيه بحنان وقالت :

ــ لم أسمع شيئا ..

ــ بل فكرى طويلا ، إن أبعد قراراتنا عن الصواب هى ما نتخذها ونحن منفعلون ..

فقالت بقوة وثقة :

ــ فكرت .. وتبين لى أننى لم أكن بحاجة إلى تفكير ألبتة ..

ــ أما أنا فلا أحب أن أكون أنانيا ..

ــ إنه قرارى أنا ، وكيف تقرن الأنانية بشخصك بعد أن ضحيت بالعزيز الغالى ..

فأسند رأسه إلى يده وقال :

ــ ولكنى خجلان .

ــ أما أنا فسعيدة جدا .

وقالت عليات :

ــ صدقها ، إنى مطلعة على مكنون قلبها ..

وكانت فى الخارج تعصف رياح مزمجرة ثم هطلت الأمطار خمس دقائق صفا بعدها الجو وتفشى الدفء والنقاء وشذا السماء . وآوى إبراهيم إلى فراشه وسرعان ما نام نوما عميقا . وبقيت عليات وسنية فى حجرة الجلوس وحدهما ، وبين أيديهما إبريق شاى وطبق مملوء بالفول الأخضر . وتبدت سنية سعيدة ،



ولكنى أعفيك من أى تعهد سابق !

وجياشة الصـــدر بعواطف لم تفصح عنها بعد . وانبعثت فى صـــدرها ينبوع إلهام فأشعرها بشجاعة متحـــدية وفدائية . قالت :

ــ إنى أفكر ..

فرمقتها عليات مستطلعة فقالت :

ــ لا أريد أن أخدعه !

ففزعت عليات قائلة :

ــ كلا ..

ــ لا أريد ..

فقاطعتها بخوف :

ــ أخى رغم شبابه متشبع بأراء أبى وأمى فى هذه المسألة بالذات فلن يفهمك أبدا ..

ــ أعتقد العكس ..

ــ كلا ، حسبك أنك مخلصة له حقا !

فتساءلت سنية فى ارتياب :

ــ أليس من حقه أن يعلم ؟

ــ كلا ، لا أعترف بحق لا يجلب إلا الشـــقاء ، وهو لن يفهمك !

ــ وإذا تراءى له أن يسأل ؟

ــ حسبك أنك مخلصة له ، والإخلاص يجب ما كان قبله ..

وتفكرا معا فى صمت وقلق حتى قالت عليات :

ـ لم نشق باللهو فلا يجوز أن نشقى بالحب الحقيقى ..

ولمست فى نبرتها حسرة على تعاستها فقالت متأثرة :

ـ ستجدين الحب مرة أخرى ، إنه مع الحياة دائما !

ـ كوارث السلام لا تقل عن كوارث الحرب ..

ـ أعتقد أن كارثة حلت بأخى مرزوق وهو لا يدرى ..

فهزت عليات رأسها فى أسى ثم قالت مستسلمة لذكرى هفت على قلبها فجأة :

ـ والدكتور علي زهران ضحية من ضحايا العبث ..

وتذكرت سنية منى زهران فجرت على شفتيها ابتسامة فسألتها عليات عما جعلها تبتسم فقالت :

ـ قرارات منى زهران !

فضحكت عليات وقالت :

ـ عليها أن تعلن نشرة يومية عن تذبذبات إرادتها ..

ـ هل تظنينها قطعت الأستاذ حسن حمودة نهائيا ؟

ـ أعتقد أنها ستتزوج من سالم على فى أقرب فرصة .

ـ رغم جنونها فهو قرار حكيم ..

ـ كلاهما مجنون .

وساد السكوت قليلا حتى سألت عليات :

ـ متى يتزوجان ؟

ـ مني وسالم ؟

ـ مرزوق وفتنة !

فأجابت سنية فى وجوم :

ـ لا أدرى .. يقال إنهما سيتزوجان عقب الانتهاء من تصوير الفيلم !

وشعرت سنية بأسى سرعان ما جفف ينابيع إلهامها ..

ـ ٢٦ ـ

دعى الأستاذ حسن حمودة لتناول العشاء بفيلا الصحفى صفوت مرجان بشارع أحمد شوقى . انعقدت الجلسة فى الفراندا المطلة على الحديقة ، فجلس حسن حمودة بين صديقه صفوت وحرمه نهاد الرحمانى . تناول طعامه بشراهة وشرب كثيرا وصمم طيلة الوقت على التظاهر بالاستهانة وتجاوز الأزمة . وقال له صفوت مرجان :

ـ خشيت أن أجدك تعيسا .

فقال ببساطة توحى بالصراحة :

ـ لا وجه للتعاسة !

ثم مستدركا :

ـ مسألة كرامة ليس إلا !

الحق أنه لم يتصور أن يجد نفسه فى الموقف الذى خلقته له منى . كان بصدد تحديد يوم للزواج ، وقرر الاحتفال به فى الأوبرج ، وعلم بذلك الأهل والأصدقاء والزملاء . وعندما

جابهته بجرأتها المعهودة معتذرة ضعق تماما . صـعق وذهل . توسل إليها أن تراجع نفسها . وكان أحبها وامتلأ إعجابا بهـا وحلم بحياة سعيدة معها . أى لعنة !. أكتب عليه أن يعانى فى الحب ما عاناه فى السياسة ؟!.

وسألته السيدة نهاد الرحمانى :

ــ وماذا تنوى بعد ذلك يا عزيزى ؟

فأجاب برزانة :

ــ سألوذ بالجبل كمجرمى وطنى الصعيد ثم أقطع الطريق على الرائح والغادى .

فضحك الأستاذ صفوت مرجان وقال يداعبه :

ــ مالك أنت وبنات اليوم ! ، احمد ربنا على تلك النهاية !

وقالت له نهاد :

ــ خير ما تفعله الآن أن تتزوج زيجة معقولة قبل أن يفوتك القطار .

فتساءل بامتعاض :

ــ معقولة ؟!

ــ أعنى أن تناسبك فى السن والأسرة .

فقال لها صفوت :

ــ يبدو أن عندك عروسا !

ــ العروس الصالحة توجد دائما ، ماذا تظن ؟

فقال حسن حمودة :

ــ أمهلينى حتى تمضى فترة الانتقال .

وقال لنفسه ساخرا إن قانون الأشـياء يقضي بأن يتزوج صفوت الاشتراكى من امرأة مثل نهاد من أسرة أما هو فعليه أن يتزوج من إحدى بنات الشعب !. وإذا بصفوت يقول :

ـ حكاية منى معك تعيد حكاية قديمة حدثت منذ عشرين سنة ..

فبهت حسن حمودة ثوانى ثم ضحك أما نهاد فتساءلت :

ـ أى حكاية ؟

فأجاب صفوت :

ـ حكاية قديمة كان حسن بطلها !

فقال حسن ساخرا :

ـ كنت الوغد لا البطل .

فسأله صفوت :

ـ ماذا كان اسمها ؟ ، لقد نسيته تماما ..

فقال حسن :

ـ سمراء وجدى .

فقالت نهاد :

ـ لم أسمع باسمها ولا بقصتها .

فقال صفوت مرجان :

ـ كنا طلبة بالحقوق ، وعشقها صاحبنا ، وكانت من أسرة كبيرة وإن كان فرعها الخاص لا يملك شيئا ..

فتساءلت نهاد :

ـ وخطبها ؟

ـ عشقها فقط ، وكان عشيقا جريئا ، يتسلل إليها ليلا فى قصر عمها على النيل والناس نيام ..

ـ ألف ليلة وليلة .. الله .. الله ..

ـ وذات ليلة شعر به الخفير ، طارده ، أطلق النار ، أصابت الرصاصة خد الفتاة ولاذ صاحبنا بالفرار ، وعند التحقيق قالت إنها شعرت بخطوات غريبة وأنها خرجت لتنادى الخفير فأصابتها الرصاصة !

ـ رائع !

ـ ولكن وجهها تشوه ، أو خدها على الأقل ..

ـ مسكينة !

ـ وكما هرب الأستاذ من القصر هرب من حياتها . .

ـ من حياتها ؟!

ـ وإلى الأبد .

وهمت بالتعليق ولكنها أمسكت ، ولحظ حسن ذلك فقال ضاحكا :

ـ انطقى بالحكم ، سمعت كل ما يمكن أن يقال .

فقالت :

ـ كان عليك أن تتمسك بها !

ـ كان لهوا لا حبا وكنت مجنونا بالشباب ، وها أنا أعامل بالمثل !

فسأله صفوت مرجان :

ـ ترى ماذا كان مصيرها ؟

فقال حسن :

ـ إنها تملك اليوم محلا لبيع لوازم السيدات بشارع شريف.

ـ ألم تجمع بينكما مصادفة ما ؟

ـ مرة منذ سنوات فى مشرب بيجال وتجاهلتنى تماما . .

فقالت نهاد :

ـ لست قاسيا فيما أعلم .

ـ الحق أنى لم أخل من ألم وتنغيص ، حتى تراكمت على المصائب بقدوم الثورة المباركة فطهرتنى من الألم بما هو أشد وأفظع ..

فقالت نهاد :

ـ أمامك فرصة نادرة فتزوج منها .

فضحك عاليا وقال :

ـ نهاية ممتازة لميلود راما ، أما الواقع فانها اليـــوم قوادة يشار لها بالبنان !

ـ قوادة ؟!

ـ قوادة هاوية .

فسأله صفوت :

ـ ماذا تعنى ؟

ـ بيتها خلية للبنات ، لها عليهن سيطرة أسطورية ، وتسهر معهن فى بيوت الأصدقاء ، بدافع اللهو والعبث لا المال !

ـ يا لها من نهاية !

ـ وسمعت بأنها تقول ساخرة إن عصر البراءة قد زال مع الرجعية والإقطاع والاستعمار !

وسألته نهاد :

ـ ألا تعتبر نفسك مسئولا عن تلك النهاية ؟

ـ كلا يا عزيزتى ، كان يمكن أن تكون زوجة أو مجرد صاحبة محل مستهترة ، أو قديسة ..

فيم يثيرون هذا الحساب العاطفى من أجل ماض ميت وينسون ما أعانيه فى قلبى وكرامتى ! ، أليست سمراء وجدى بأسعد منى ألف مرة ؟. ألم تفقد أسرتنا ابن أخت فى غارات الأعماق ؟ . كما مات أبى وكما لوثت سمعتنا ظلما وبهتانا . غير أن أخطر شىء أن يستسلم المرء لعاطفة حب خائب وهو فى الأربعين . والتفت نحو صفوت فسأله :

ـ ماذا عن الأخبار ؟

فأجاب الرجل الذى لرأيه وزنه دائما .

ـ لا جديد ، ولكن الأمور تتحسن فيما أعتقد .

فقال حسن حمودة بضيق :

ـ الله يسامحك .

فضحك صفوت من أعماقه وقال :

ـ نسيت أننى أخاطب رجلا هواه مع جيش إسرائيل ضد جيش مصر .

فتساءل وهو لا يخلو من شعور بالاستياء :

ـ أهذا هو تصويرك لموقفى ؟

ـ المسألة مسألة موقف وطنى قبل كل شىء .

ـ أى موقف وطنى ! ، إما الديمقراطية أو الاشتراكية ، أمريكا أو روسيا ، وإذا كان من حقكم أن تحبوا روسيا فلم لا يكون من حقنا أن نحب أمريكا ؟ !

فقال صفوت بجدية :

ـ المهم ما يريده الشعب .

ـ أى شعب ؟

ـ الشعب ، الشعب التحتانى الذى لا تعرفه .

وفاض قلبه بالتهكم والمرارة ، والكراهية والسخط ، وفى تلك اللحظة كره كل شىء ، حتى الحديقة التى تضوع بشذا زهر البرتقال ، والليل الرطيب ، وصفوت مرجان ، وحتى نهاد الرحمانى ، وقال لنفسه صبرا ، ففى غمضة عين قد تقع كارثة لا تخطر على بال ..

- ٢٧ -

شهدت عليات حفلى زواج فى أسبوع واحد ، حفل متواضع جمع بين أخيها الضرير وسنية . وحفل آقيم فى بهو عمر الخيام جمع بين منى زهران وسالم على . وقالت إنه مهما يكن من شأن الصداقة التى تربطها بسنية ومنى فلن تبقى هى هى بعد الزواج ، هكذا تعلمت من تجارب سابقة ، فشعرت بفراغ مروع لم تشعر بمثله من قبل . وكرهت فكرة العودة إلى اللهو والعبث فالحق أنها كانت تتوق إلى الحب . وزارت الأستاذ حسنى حجازى مساء بناء على دعوة تلقتها منه تليفونيا وهى فى الوزارة . تلقاها بحنان قبل وجنتيها ، وهو يقول :

ـ توقعت أن تزورينى من زمن ..

لما لم تجب سألها :

ـ ماذا تفعلين ؟

فقالت بفتور :

ـ آكل وأشرب وأنام .

ـ يجب أن نتعلم من مرارة الأيام التى نتجرعها ألا نحزن أكثر مما ينبغى مهما يكن المصاب !

فقالت بالفتور نفسه :

ـــ إنى أتعلم ولكن التعليم كما تعلم يحتاج إلى زمن .
ـــ أنت شجاعة وأنا مطمئن إلى مستقبلك ..
وضحكت على رغمها فنظر إليها مستطلعا :
ـــ ماذا أضحكك ؟
ـــ ما أجملك فى ثوب الواعظ !
فتساءل وهو يمضى إلى البار ليملأ قدحين من كوكتيله المشهور :
ـــ ترى هل سمعت هذا القول من قبل ؟
ـــ لم دعوتنى ؟.. هل وراءك فيلم جديد ؟
فقدم لها القدح قائلا :
ـــ إنى أفكر فى مستقبل بناتى ولا أنساهن كما ينسيننى ، لذلك حدثت المخرج أحمد رضوان فى شأنك !
فاشتعلت عيناها فى اهتمام ودهشة وتمتمت :
ـــ شأنى ؟
ـــ قلت إنك فتاة ممتازة وجميلة وتصلحين للشاشة !
فهتفت فى ذهول :
ـــ أنا !
ـــ أنت طبعا ..
فضحكت بعصبية وقالت :
ـــ لا أتصور ، لا أستطيع ..
ـــ وهل كان مرزوق يتصور أو يستطيع ؟
ـــ لست ممثلة .. ثم أنسيت أبى ؟

ـ سيثور طبعا ، ويرفض ، وسأحدثه طويلا ، وسوف يذعن في النهاية !

ـ إنه أصلب مما تتصور ، ولكنه ليس العائق الحقيقي ، العائق هنا ..

وأشارت إلى نفسها فقال :

ـ لندع الامر للتجربة ..

ـ إذن فأنت جاد ؟

ـ وهو على استعداد لاختبارك !

ـ وما الذي جعلك تفكر في ذلك ؟

وهو يضحك :

ـ حتى لا تقتصر حياتك على الأكل والشرب والنوم !

ودارت قلقها بالضحك فقال :

ـ توقعت أن تتحمسي أكثر من ذلك فالحياة تطالبنا بالحماس حتى في أسوأ الظروف .

وشربا معا . وأغمضت عينيها لتفكر وراح هو يتمشى بين البار والتلفزيون . فتحت عينيها فالتقت بعينيه فسألها :

ـ ماذا قلت ؟

ـ ليكن ، ليس في الإمكان أسوأ مما كان .

فضحك وقال :

ـ الغم يخلق حكما جديدة .

فقالت :

ـ الشوارع في شبه ظلمة !

ـ لا يمكن أن تفهمى شيئا أو أن تستنتجى شيئا ..

ـ المستقبل ملىء بكافة الاحتمالات .

ـ فى مثل هذه الظروف يحسن العناية بكل دقيقة خالية من كارثة ..

ـ الأقاويل كثيرة جدا .

ـ لو ضربت القاهرة فستقوم القيامة .

ـ مسكين أخى ، ربنا يأخذ بيده ..

فقال حسنى حجازى بجدية :

ـ استدعى ابن أخى الأكبر أمس للتجنيد أما أختى وهى أرملة غنية فقد فعلت المستحيل لتجنب بكريها التجنيد وذلك بإرساله إلى كندا كمهاجر .

ـ كيف أمكنها ذلك ؟

فضحك ضحكة قصيرة وقال :

ـ تخيلى الأمر بنفسك ! ، المهم أنه قتل فى الأسبوع الماضى فى حادث تصادم !

فندت عنها آهة تعجب فقال حسنى :

ـ اضحكى إن شئت !

فتساءلت :

ـ هل تنقصنا روح القتال ؟

ـ زوار الجبهة يلمسون روحا عالية ولكن الأهالى يعيشون فى بلبلة !

ثم استدرك بنبرة يقين :

ـ ولا تنسى الفدائيين فهم معجزة هذه المرحلة !

ودق جرس الباب الخارجى فمضى إليه باهتمام وهو يقول :

ـ أظنه أحمد رضوان ، كونى شجاعة من فضلك !

ـ ٢٨ ـ

شهدت فتنة ناضر اليوم الأخير للتصوير وحدها إذ لم يكن لمرزوق دور فى ذلك المشهد . وانتهى العمل حوالى منتصف التاسعة مساء فتبودلت التهانى ، وشربت أكواب الشربات ، ووزع أحمد رضوان نقودا على العمال . ودعا فتنة إلى فنجان شاى فى البوفيه فغيرت ملابسها ولحقت به ، وجلسا معا يحتسيان الشاى ويتناولان البسكوت . وساءلت نفسها ترى أهى جلسة الوداع ؟. وكانت ثمة أنباء نمت إليهـــا عن أنه يعد مفاجأة فى الوجوه الجديدة بقصد القضاء عليها فلم تكترث كثيرا ، مطمئنة إلى ما أحرزته من نجاح ساحق بين الجماهير . وفى الوقت نفسه تمنت لو تتفادى من تطاحن سخيف لا معنى له ، تمنت أن يثوب إلى رشده إن يكن ذلك فى الإمكان . وكان يلاحظها طيلة الوقت فسألها :

ـ ترى فيم تفكرين ؟

فأجابت بصراحة :

ـــ كيف يمكن أن نظل أصدقاء !

فقال بامتعاض :

ـــ الصداقة لا تصلح بديلا عن الحب .

ـــ يجب أن تحاكمني بعدالة .

ـــ أهذا يعني أنك ستتزوجين حقا ؟

ـــ صارحتك بذلك في حينه .

فقال محتجا :

ـــ ولكنني لم أكن في حياتك شيئا على الهامش !

فاعترفت قائلة :

ـــ لا جدال في ذلك ، نور نجاحي مستمد من روحك !

فقال برجاء :

ـــ أشكرك ، ولكن لم الزواج يا فتنة ؟ ، لا داعي للزواج يا فتنة !

ـــ يخيل إلي أنك لم تصدقني بعد .

ـــ يعز علي تصديقك .

ـــ لا تصدق أن الجنون ممكن ؟

فقال باستسلام :

ـــ بما أنني مجنون فأنا أومن بالجنون ولكن ..

وتوقف فتساءلت :

ـــ ولكن ؟..

ـــ ولكن هل يبلغ الجنون حد الاستهانة بالمستقبل ؟

ها هو يعود للتهديد ! .. هو هو لا يتغير . وقالت :

ـــ المستقبل بيد الله وحده ..

فقال ساخرا :

ـــ يعجبنى إيمانك !

فلم تضحك ، فأدنى رأسه إليها وقال :

ـــ إذن فلتبق علاقتنا كما كانت !

فقالت باستياء :

ـــ ولكنى جادة يا أستاذ !

فقال بحنق :

ـــ إذن لم تكونى جادة فيما مضى ؟

فتنهدت ولم تنبس فتمتم مغيظا محنقا :

ـــ اللعنة ..

ثم منذرا :

ـــ أخشى أن تنطفىء الشعلة فى صدرينا معا !

ـــ إن صدقت نيتنا على النجاح فلن نلقى ما نخشاه .

ـــ أعتقد انك لا تفهمين نفسك ، أنت لا تحبين إلا الفن !

فتوسلت إليه قائلة :

ـــ دعنى لمصيرى .

فهتف بوجه متقلص :

ـــ أنت تدفعيننى إلى هاوية ..

ـــ أملى فى حكمتك لا حدود له ..

ـــ عار أن تعترف بزيف عواطفك القديمة ..

فقطبت فى ضيق وقالت :

ـــ دعنا مما كان .

ووضعت يدها على يده وقالت :

ـــ افتح قلبك لصداقة جديدة .

فقال بغضب :

ـــ لا تتحدثى عن الحب كأنك تجهلينه ..

فغمغمت فى يأس مسدود :

ـــ لا فائدة !

فقال بوحشية :

ـــ لا فائدة !

وصمتا . وساءلت نفسها كيف تنتهى هذه الجلسة التى لا تحتمل . واستدعيت للتليفون فقامت وهى تتنهد فى ارتياح . وجعل يراقبها من بعيد وهى تتكلم .

ورآها تعيد السماعة فى عجلة ولهوجة . شىء وقع . شىء ذو خطورة . أخطر مما يتصور . بصرها زائغ ونظراتها جنونية . إنهاتبتعد ناسية تماما حقيبتها . وتناول الحقيبة وهرول نحوها . وما كاد ينطق باسمها حتى صرخت فى وجهه :

ـــ أنت .. أنت .. أنت المجرم !

وجرت نحو سيارتها كالمجنونة .

— ٢٩ —

استسلمت فتنة للكرسى المعدنى محمرة العينين . رقد مرزوق فوق سريره بالمستشفى غارق الرأس والوجـــه فى الأربطة . وكانت قد أجريت له جراحة معقدة فى الفك الأسفل والذقن والجبهة عقب الحادث مباشرة . وجلس فى الاستراحة المتصلة بالغرفة إبراهيم وسنية وعليات . حتى أحمد رضوان زاره ، ولما وجد الجو معاديا غادر المكان بسرعة .

ولما سئل مرزوق بعد مضى وقت مناسب قال فى التحقيق إنه كان يسير فى شارع ابن أيوب فى مطلع المساء ، فى ظلام شامل ، وفى طريق خال ، حين هاجمه شخص أو أكثر ، وانهالت على وجهه اللكمات حتى غاب عن وعيه تماما ، ثم لم يسترده إلا فى المستشفى . وتلقى السؤال التقليدى إن كان له أعداء أو كان يتهم أحدا ، فأجاب بالنفى ، ولكن التحقيق جره إلى ذكر قصة حبه بملابساتها جميعا ، مما استدعى سؤال أحمد رضوان بل وعليات عبده . ولم يكن الشيخ يزيد بمصر ، وأنكر أحمد رضوان أى علاقة له بالحادث ، وكذلك عليات ، واستمرت المباحث فى البحث خلال جو كثيف الغموض .

وتركز القلق حول مسألة هامة شغلت عقول أهله وأحبابه ، فتساءلت سنية :

ــ ترى إلى أى حد سيتغير وجهه ؟

فقال إبراهيم عبده :

ــ على ذلك يتوقف مستقبله .

فعادت تقول :

ــ فتنة بكت بحرارة .

ــ إنها تبكى عليه وعلى نفسها .

ومرت فترة الانتظار ثقيلة على القلوب المحبة . وغادر مرزوق المستشفى بوجه جديد ! . رغم ما قدم الطب من معجزات فقد خرج بوجه جديد . لم يكن القبح طابعه ولكنه فقد شخصيته ومذاقه وروحه . كان ثمة تجويف صغير فى جانب الجبهة واعوجاج فى الفك أضفى عليه قسوة من غير معدنه وانحدار فى الذقن إلى الخلف . وعندما رأى صورته فى المرآة نظر إليها طويلا فى ذهول حتى امتلأت عيناه بالضباب ، ثم تهاوى جذعه ذتقوس من اليأس وهتف :

ــ انتهيت !

وتحول إلى فتنة بوجه ملؤه الخذلان وكرر :

ــ انتهيت يا فتنة !

فأحاطت عنقه بذراعيها وقالت بحرارة :

ــ كلا !

ــ انتهيت وأنت تدركين ذلك !

ــ كلا !

ــ كلا ؟ !

ــ ربما .. ربما ..

فقاطعها متسائلا :

ــ ربما ؟

فقالت وهى تخفض عينيها :

ــ يوجد أكثر من دور ناجح للممثل القادر مثلك .

فهتف يائسا :

ــ أنت توافقيننى على رأيى بأسلوب آخر .

فضمته إلى صدرها وهى تقول :

ــ لنؤجل التفكير فى ذلك !

ــ وهل يوجد ما هو أهم ؟

فقرصته فى خده معابثة وقالت :

ــ نحن نستعد للزفاف !

فرنا إليهــا بذهول ، وعينه اليسرى ترتعش وتضيق ، وتساءل :

ــ ماذا ؟

ــ الزفاف يا عزيزى الجاحد !

ــ أهو مجرد عناد ؟

فصاحت بغضب :

ــ كلا ..

وساءل نفسه ترى هل تعنى ما تقول ؟ . هل تتحقق تلك

المعجزات فوق الأرض ؟ . وكان صدرها يجيش بالحب والعطف والتحدى . وكانت مصممة على تحطيم درع الدناءة الصلب والبصق على وجه الشماتة الكالح . وضمته إلى صدرها بقوة وهى تقول :

ـ فلنمض فى استعدادنا للزفاف !

ـ ٣٠ ـ

تلقاها حسنى حجازى بين ذراعيه . أنامت رأسها فوق صدره فى استسلام فشعر بشدة توقها إلى الحنان . وقال وهو يربت على ظهرها :

ـ قلق الدنيا والآخرة مطبوع فوق وجهك العذب يا عليات .

فتملصت من ذراعيه وانحطت فوق الفوتيل وهى تسأله :

ـ أين كنت فى الفترة الماضية ؟

ـ سافرت إلى يوغوسلافيا للاشتراك فى مهرجان للأفلام القصيرة .

ـ ألم تسمع عما حدث لمرزوق أنور ؟

ـ إنه حديث الوسط الفنى ، وكثيرون يتهمون أحمد رضوان ، وهو مجرد ظن لم يقم عليه دليل ، ما رأيك ؟

ـ لا أدرى ، أنا نفسى سئلت فى التحقيق !
ـ فداك نفسى يا عزيزة .
ـ وتم زواج فتنة ومرزوق .
ـ إنه حديث الوسط أيضا ولكن لا يستطيع أحد أن يتنبأ بالنتيجة !

فقالت بفتور :
ـ سنية وإبراهيم سعيدان ، وهى تجربة مماثلة !
ـ كلا .. ثمة اختلاف جوهرى ، ولكنك لم تحدثينى عن تجربتك !
ـ أى تجربة تقصد ؟
ـ مع المتهم أحمد رضوان ؟
فقالت باستهانة :
ـ فشلت تماما . لا ذرة من استعداد عندى للتمثيل ..

فنظر إليها باشفاق وقال :
ـ أهذا ما يحزنك ؟
ـ كلا ..
ـ ولكنك افتقدتنى فى غيابى فلماذا ؟
ـ كنت أقرع جرسك كل مساء !

فتساءل باسما فى سخرية :
ـ هل اكتشفت اخيرا أننى معشوقك الحقيقى ؟

فصمتت قليلا . أشارت إلى بطنها . ثم قالت :

ـ يوجد هنا شيء غير مرغوب فيه !

فهتف بدهشة :

ـ كلا !

ـ هى الحقيقة !

ـ ولكنك حريصة دائما ..

فقالت بمرارة :

ـ تعبت من الحرص كما تعبت من الحياة .

فجعل ينظر إليها وهو يتذكر منظر جزر الأدرياتيك كما تلوح لعينى المشاهد فى دوبروفنيك فى ليالى القمر ، ثم سألها :

ـ من ؟

ـ لن يخطر لك على بال !

ـ يوثانت ؟

ـ سائح مجهول ذو لحية شـــقراء وشعر مضفور دعانى للعشاء فلبيت !

فضحك حسنى طويلا ثم قال :

ـ احتفظى به فسيكون درة !

ـ كدت أجن فى غيابك ..

فقال بعطف :

ـ غلبك الحزن أكثر مما يجوز .

فقالت بتأثر شديد منذر بالدمع :

ـ كان التحقيق ، ثم الزواج ، وشعرت بأن الدنيا ماتت ولن تبعث .

وراح يملأ قدحين وهو حزين ، وقدم لها قدحها قائلا :
ـ صحتك !

وأفرغا القدحين معا . وقال ـ لا عن صدق ـ ولكن عن عطف حقيقى :
ـ تذكرتك وأنا جالس فى حديقة تحت الأرض فى دوبروفنيك فتاقت نفسى إليك بحنان عجيب!
ـ لعلى كنت أفكر فيك وأنا أقرع جرسك فلا يرد .
ـ قلبى معك ، لا تخافى يا عزيزتى ..

فتنهدت بصوت مسموع تردد كالنغمة فى جو الحجرة السحرى . وكان يروض رغبة طفرت إلى أعصابه ، رغبة طارئة وناعمة فى أن يلعب الحب معها . ولم يعلنها ، وذهب إلى التليفون وأدار القرص :
ـ ألو !.. سمراء ؟.. كيف أنت !.. جميل أن تعرفى صوتى من أول كلمة ... أريدك على عجل .. الآن إن أمكن .. إلى اللقاء ..

ورجع إليها وهو يسأل :
ـ أتعرفين سمراء وجدى ؟

فهزت رأسها نفيا فقال :
ـ آن لك أن تعرفيها ..

- ٣١ -

ظل حسن حمودة أربعين عاما لا يفكر فى الزواج ولا يهتم به حتى عرف منى زهران . وبعد أن فشل مشروع زواجه منها لم يعد له من شاغل إلا الزواج . وأثير الموضوع من جديد . أثارته نهاد هانم عقب عشاء دعيت إليه هى وزوجها صفوت مرجان فى قصر الأستاذ حسن حمودة بشارع الفضل بالعجوزة . وهو قصر ضخم ذو حديقة كبيرة ورثه عن أمه ، ويقيم فيه وحده مع الخدم . وهو يمتاز بحيازته لطاه فاخر خليق بأن يعتز به مطعم عام من مطاعم الدرجة الأولى . وهـو أكول وذواقه للطعام الجيد ، وتماثله نهاد فى ذلك ، بخلاف صفوت الذى يقنع بكأسين من الويسكى ومختارات من الشواء والخضر والفاكهة . ودار الحديث عن الزواج وكان هو الذى فتحه برغم ما عرف عنه من ولع خاص بحديث السياسة الذى لا ينتهى . قال لها :

ـ أود أن أسمع آخر أنباء عن عروسك !

فقالت صفوت :

ـ أراهن على أنك ستتزوج قبل نهاية هذا العام .

وقالت نهاد هانم :

ـ هى أرملة وأم لبنت وحيدة فى الجامعة ومن أسرة كبيرة مثل سعادتك ..

فغلبه الفتور وقال :

ــ لن يقل سنها عن الأربعين .

ــ هى فى الأربعين !

فقال محتجا :

ــ ولكننى فى الأربعين وتلزمنى عروس شابة .

فقالت نهاد ضاحكة :

ــ لست خاطبة .

وقال صفوت :

ــ عليك أن تجدها بنفسك فى سينما أو فى مرقص أو فى الطريق !

فقال يائسا :

ــ لا وقت عندى للبحث ، ولولا جناية دعيت للدفاع فيها ما عرفت منى زهران ..

فقالت نهاد ضاحكة :

ــ ما عليك إلا أن تنتظر جناية أخرى .

وسأله صفوت :

ــ ولكن هل تناسبك فتاة من هذا الجيل ؟

ــ لم لا ؟

ــ لهن رءوية جديدة فى الحياة والحب .

فقال بلا تردد :

ــ أنا فى هذا المجال تقدمى أكثر مما تتصور !

فضحك صفوت مرجان وقال :

ـ لست أول شخص يجمع فى ذاته بين الرجعية فى السياسة والتقدمية فى الحب !

اكفهر وجهه الأسمر الغامق ، وازداد إشعاع عينيه حدة . أثارته ـ كما تثيره عادة ـ تهمة الرجعية . إنه يعتبر الديمقراطية غاية التقدم ، وما عداها نوعا من النازية أو الفاشستية . وهو يفهم الديمقراطية على أنها أسلوب من التعامل بين الصفوة فى المجتمع . الصفوة من أصحاب المصالح الحقيقية وأهل الفكر والثقافة . أما عامة الشعب فلا يعترف بهم ولا يعمل لهم حسابا فى قائمته الإنسانية . لذلك لم يحن هامته أمام الموجة الشعبية الهائلة التى أطلقتها الثورة . وكان يسخر من بعض أهل طبقته الذين تأثروا بها فراحوا يهزون شجرة الأسرة بعنف لعلهم يعثرون على غصن فقير .. « شعبى » يلوذون به فى الإعصار العاصف الذى يقتلعهم من جذورهم . كان يعتز دائما بأصله الرفيع ، والعمالقة من أعمامه وأجداده ، وينظر إلى الأشياء والناس نظرة أرستقراطية متعصبة . وقد انتشلته ملحوظة صفوت مرجان العابرة من حديث الزواج فردته إلى موضوعه الابدى وهو السياسة فقال :

ـ الديمقراطية الأمريكية رجعية ؟! ، أمريكا أمة علمية ، وقد تجاوزت بالعلم خزعبلات الشيوعية ونبوءاتها الكاذبة ..

فقالت نهاد :

ـ نحن لا نكف عن الكلام ، لا أحد يتكلم مثلنا ، والغارات تمتد إلى أعماق بلادنا ..

فقال حسن حمودة بحنق :
ــ المسألة أننا أمة مهزومة ولكنها تأبى الاعتراف بهزيمتها !
ثم نظر إلى صفوت وسأله :
ــ متى نعترف بالواقع فى تقديرك ؟
فأجاب صفوت وهو يشعل سيجارة :
ــ سيخطو الروس خطوة جديدة وهامة فى تقوية دفاعنا .
الروس أيضا ! . إنه يكره الروس أكثر من الكوليرا .
ولولاهم لكان ٥ يونية يوم السعادة الحقيقية والفردوس المفقود . وسأله :
ــ هل نصمد حتى تصل المعونة الروسية الجديدة ؟
فقالت صفوت بثقة :
ــ لن يسمحوا بهزيمتنا مرة أخرى !
ــ مبارك عليكم هذا الأمان !
فضحك صفوت وقال :
ــ الروس لا يستغلون .
وقهقه حسن حمودة عاليا . اعتدها نكتة فروح بالضحك عن حقده المشتعل . روح بالضحك عن أحلامه الدموية المكبوتة .
وكانت نهاد تمل حديث السياسة بسرعة فسألته بنبرة مرحة :
ــ لم لا تعلن عن رغبتك فى الزواج فى إحدى المجلات ؟
فضحك حسن ، وضحك صفوت ثم قال تاييدا للفكرة :
ــ اقترح الإعلان الآتى :
ح . ح . محام ناجح ، غنى ، من أصل أرستقراطى ، فى

الأربعين من عمره ، أمريكى الهوى اسرائيلى الرؤية ، يرغب فى الزواج من فتاة فى العشرين ، مثقفة عصرية ، جميلة .

فواصل حسن ضحكه وقال :

ــ سيجيئنى الرد سريعا من وزير الداخلية !

ــ ٣٢ ــ

أمضى مرزوق وفتنة شهر العسل فى أسوان ، ولما رجعا إلى القاهرة أقاما فى شقة بشارع فنى وتأهبا لمواجهة الغيب . وكان مرزوق قد استرد كثيرا من الثقة المفقودة وتألقت فى خياله أحلام غير شاحبة . ودعيت فتنة للقيام ببطولة فيلم فاقترحت أن يلعب مرزوق الدور الأول أمامها ولكن اقتراحها رفض بأسلوب اعتدته غير مقبول فرفضت الفيلم بصلف . وتكرر ذلك مرة أخرى فى نفس الأسبوع ! . عند ذاك رأى مرزوق أن الأمر يستحق المناقشة . تزعزعت ثقته وتبخرت أحلامه فأقبل على المناقشة بقلب جاف وتصميم يائس . قال لها :

ــ لا يجوز أن ترفضى فيلما بعد الآن وإلا ..

فقاطعته :

ــ إنى مؤمنة بأنك ستكون عنصر نجاح .

ـ المهم أن يؤمن الآخرون ، فاقترحى إذا شئت ولكن لا ترفضى ..

وشعر بأن النجاح الذى أحرزه إنما يخص شخصا آخر لا علاقة له به . وبحسرة قال لها :

ـ يحسن بى أن أفكر جديا فى وظيفتى التى لم أشغلها .

فقالت بارتباع :

ـ تعمل ست ساعات يوميا بسبعة عشر جنيها !

ـ على أن أتوافق مع الواقع مهما يكن مرا !

ورفض من بادىء الأمر أى مغامرة سخيفة أو تفكيرا جنونيا . قال :

ـ واضح أننى لم أعد صالحا للبطولة .

فقالت برقة :

ـ توجد أكثر من بطولة فى الفيلم ولكن حذار من الأدوار الثانوية فهى شرك لافكاك منه ..

أجل هى شرك . وهذا المسكن الأنيق شرك أيضا . وحبه الذى ضحى فى سبيله بإنسانيته شرك ثالث . وتجهمته الحياة لحد التقزز .

ودق جرس التليفون . كان المتكلم أحمد رضوان !. وكان يستأذن فى زيارة . ونظرت نحو مرزوق مستطلعة فقال رغم انفعاله الشديد :

ـ إذا كان لعمل فليحضر ..

وجاء فى الميعاد . وانحنى باحترام تحية متجنبا ـ فى الوقت

نفسه ــ مغامرة المصــافحة . وجلس فى أدب لا منتفخا ولا مزهوا ، وقال :

ــ توجد غشاوة من سوء الظن .

ونقل بصره بينهما ثم قال :

ــ علينا أن نبددها ، لأنه لا مبرر لها ، ولأنه لاغنى لنا عن العمل المشترك !

لم يسمع تعليقا . شعر بجمرات النظرات تلسع وجهه فقال :

ــ كان استدعائى للتحقيق سخفا ، آلمنى جدا ، كما يجدر بإنسان برىء بكل معنى الكلمة ..

ولما لم يسمع كلمة التفت نحو مرزوق وقال :

ــ لست مجرما ، أنا فنان مثلك ، وحبى لزملائى مضرب الأمثال ..

تنبهت فتنة إلى أنها لم ترحب به ولم تقدم له شيئا فأشارت إلى البار وقالت :

ــ معذرة ، اشرب شيئا ..

وقام إلى البار فتناول زجاجة الكورفوازييه شرابه المفضل فملأ كأسا ثم عاد فواصل حديثه الموجه إلى مرزوق :

ــ يوجد أكثر من شخص يمكن أن تحوم حوله الشبهات ، البراءة لم تسعدنى ، ما يهمنى حقا هو أن تقتنع أنت ببراءتى ..

لم يسمع إلا أنفاسا تتردد فانطبع الأسف فى أساريره وقال :

ــ افتح لى قلبك وصارحنى بما فيه .

وثبت عليه عينيه حتى قال مرزوق :

ـ لم أعد افكر فى الأمر تاركا غوامضه للشرطة !
ـ عظيم : لننتظر ، أنا مطمئن تماما ، ولنتكلم الآن فى العمل!
وشرب كأسه دفعة واحدة ونظر الى فتنة وقال :
ـ كانت بيننا مشروعات مشتركة !
فهزت رأسها بالإيجاب فقال :
ـ ماذا يمنعنا من التنفيذ ؟
فقالت بهدوء :
ـ الجواب عندك .
ـ لاشىء فلنبدأ .
فأشارت الى زوجها وقالت :
ـ كان أيضا ضمن المشروعات .
فقال بثقة :
ـ سيكون له دور محترم !
ـ أحب أولا أن أدرس دوره فى السيناريو !
ـ عظيم ، ولكن أوصيك بالمرونة والحكمة ، إنتاج فيلم فى هذه الظروف الكئيبة مغامرة يستحق القائمون بها كل تقدير ، فى أى لحظة ، وتتيجة لهجوم أو غارة قد يتوقف العمل فى الفيلم ، وربما فى عالم السينما كله ، والعاقل من يدرك ذلك .
فقالت بهدوء وتصميم :
ـ قلت رأيى يا أستاذ أحمد .
ـ تذكرى أن همومنا صغيرة إذا قيست بالويلات التى تنصب على الوطن !

فقالت ضاحكة على رغمها :

ـ لا أذكر أنك اهتممت بالويلات من قبل !

فتساءل محتجا :

ـ أهذا كلام يوجه لرجل أخوه يعمل فى الجبهة ؟

وقام فانحنى مرة أخرى محييا ثم غادر المكان .

ـ ٣٢ ـ

تعرفت عليات على حامد فى بيت منى زهران بالزمالك . كانت دعوة للعشاء حضرتها سنية وعليات ، وشهدها حامد باعتباره شقيق سالم زوج منى . ومن بادىء الأمر اهتم حامد بعليات اهتمام إعجاب . وأوصل الفتاتين إلى محطة الباص ، وفى أثناء الطريق أعلن عن رغبته فى مقابلة عليات لمزيد من التعارف . وهو ما شجعت عليه سنية ـ فتم الاتفاق على ذلك . وتقابلا عند الأصيل فى ميدان طلعت حرب ، وسألها أين تفضل أن يجلسا ، فاقترحت دار الشاى الهندى ، ربما لتفاؤلها بها بعد أن جمعت بين منى وسالم . وكانت معلوماته عنها لا بأس بها ، مثل درجتها العلمية ووظيفتها بالشئون الاجتماعية وغير ذلك من المعلومات التى اعتقدت أن منى بلغتها إياه . ودهشت

وهو يحدثها عن وظيفته البسيطة بسكرتارية مؤسسة التى لم تتناسب مع حديثه الذكى المثقف . سألته :

ــ من أى كلية ؟

فقال بلا ارتياح :

ــ الثانوية العامة فقط !

فارتبكت قليلا وقالت :

ــ الحق أنك مثقف جدا

ــ ذاك شيء آخر .

وقرأ فى عينيها تساؤلات تداريها بأدبها فقال :

ــ عقب حصولى على الثانوية العامة اعتقلت !

فتساءلت باهتمام :

ــ لم ؟

فقال ضاحكا :

ــ بتهمة الشيوعية !

فنظرت إليه بحب استطلاع وإشفاق فقال :

ــ لم أكن شيوعيا عندما اعتقلت بتهمة الشيوعية .

ــ ذلك مؤسف بقدر ما هو غريب .

فقال باسما :

ــ بقدر ما أنت جميلة ..

وساءلت نفسها كم مرة سمعت هذه الجملة . ولكن كم مرة قيلت لوجه الجمال وحده ؟ ، قالت :

ــ لا تبالغ .

ــ من أول نظرة شعرت بأنه سيكون لك معى شأن .
فقالت ببساطة :
ــ شكرا ..
ثم مستدركة فى تساؤل :
ــ ولكن كيف سقطت عليك تهمة الشيوعية ؟
ــ لا أدرى .
ــ لم أكن أتصور أن الأخطاء تقع بتلك السهولة .
فقال متهكما :
ــ كل شيء ممكن .
فتجلت فى عينيها العسليتين نظرة تشع سخرية ومرارة معا .
قال :
ــ كنت فى الثامنة عندما قامت الثورة فأنا أحد أبنائها ..
وتبادلا نظرة طويلة قال بعدها :
ــ منى زوجة أخى معجبة بك ، وحدثتنى أيضا عن أخيك البطل .
ــ إنه يشق طريقه فى الظلام بإرادة قوية .
ــ وأثارت إعجابى أيضا بزوجته ..
ــ أحيانا يرتفع الحب بالإنسان إلى ذروة عالية .
ــ أظنه كذلك دائما ..
ــ كلا ، ليس دائما ..
فقال باسما :
ــ لا داعى للتشاؤم فإنى أكرهه .

ــ حسن .

واحتسيا الشاى وتناولا أربع قطع من الجاتوه ، وتبادلا فى أثناء ذلك نظرات موحية .

ثم سألته :

ــ هل جندت ؟

فأجاب باقتضاب :

ــ كلا .

ثم مستدركا :

ــ عينى اليسرى لا تكاد تبصر ..

فسألته بإشفاق :

ــ مرضت بها ؟

ــ فقدتها أو كدت فى المعتقل !

فارتسم الذعر فى وجهها فقال باسما :

ــ أستطيع أن أعجب بك بعين واحدة فضلا عن عين وربع !

ــ ومع ذلك فأنت برىء من الشيوعية !

فضحك وقال :

ــ عندما أفرجوا عنى كنت قد انقلبت شيوعيا فى نظرهم .

وضحكت فضحك ، وبدت لهما الأمور فى غاية من الفكاهة .

وعند ذاك سألها :

ــ ماذا تفضلين ، السينما أم الرقص ؟

فقالت بعذوبة :

ــ ليس الليلة من فضلك ..

— ٣٤ —

نظر حسنى حجازى إلى القادمة بدهشة ، ثم فتح ذراعيه فتعانقا بحرارة ، ثم تملصت من ذراعيه فسبقته الى حجرة الجلوس وهو يقول فى إثرها :

— عزيزتى سمراء وجدى ، أى سعادة ..

وأسكتت الراديو وهى تسأله :

— كنت نسمع آخر أنباء الغارات ؟ ، بى شوق نهم إلى كوكتيلك .

فاتجه الى البار وهو يقول :

— أول مرة تحضرين فيها وحدك !

فقالت بنعومة وهى تتناول كأسها :

— إنما أجىء هذه المرة من أجل نفسى لا من أجلك .

متوسطة القامة ، رشيقة كلاعبة فى سيرك ، بيضاء موردة ، من الأمام ومن الناحية اليسرى تتبدى جمالا أنيقا نبيلا ، أما عارضتها اليمنى فمشدودة فى تقلص ، مدبوغة باحمرار ضارب للسواد ، وبها بقع منفرة ونتوءات كالدرن . جلست واضعة رجلا على رجل وهى ترنو إليه بغموض وتحفز حتى أثارت حب استطلاعه إلى أقصى حد . قال وهو واقف أمامها :

ـــ ما أسعدنى بك يا سمراء .
ـــ لا تكذب ، أنت تسعد بالعصافير التى أجىء بها ..
ـــ ولكنك تعلمين كم أحبك وأحترمك .

فقالت ساخرة :

ـــ لا يهمنى الاحترام !
ـــ لا شيء يرفع من شأن الإنسان كالمأساة .
ـــ لا تذكرنى بأشياء لم أعد أتذكرها .

فقال بلهجة صادقة :

ـــ نحن فى زمن خسيس معبوده المال ، وبوسعك أن تربحى منه الآلاف ، ولكنك تجودين بكل جميل من أجل اللهو والحب لا المال ، أنت من كوكب آخر ..

فقالت ضاحكة فى سرور :

ـــ أنا صاحبة محل وغنية ..
ـــ لا تبخسى حقك من الثناء ، لو أردت لبلغت درجات أخرى من الغنى لا يقاس بها غناك !

فقامت بنفسها إلى البار لتملأ كأسها من جديد ثم عادت إلى مجلسها وهى تقول :

ـــ اسمع يا عزيزى الكهل الفاسق ، إنما قصدتك لمسألة تهمنى شخصيا !

ـــ فى خدمتك ، لعلك تريدين مشاهدة آخر الأفلام .

فقالت بهدوء ، وهى تنفذ إلى روحه بنظرة عينيها :

ــ أريد عليات !

لاح لأول وهلة كأنما يحاول تذكر صاحبة الاسم فقالت بتحد :

ــ الفتاة التى دعوتنى لإجهاضها !

ــ آه ، ولكنى لا أدرى عنها شيئا تقريبا إلا إذا جاءتنى بنفسها ، هل لى أن أتطفل فأسأل عن السبب ؟

فقالت ببساطة :

ــ الظاهر أنى عشقتها .

فضحك حسنى ثم تساءل :

ــ ترى هل تحب هى ذلك ؟

ــ عندى أمل !

ــ أليس لديك من البنات ما ..

فقاطعته بحدة :

ــ ما هذا الكلام الفارغ الذى لا يتوقع من كهل فاسق مجرب مثلك !

ــ معذرة ، ولكنها كانت بين يديك ؟

ــ زارتنى مرة فى المحل للشكر ثم اختفت ..

ــ لعلها اختفت متعمدة ..

ــ كيف أتصل بها ؟

ــ أعدك بأن أبلغها رغبتك فى زيارتها إذا زارتنى يوما .

فقالت بغضب :

ـ لا جدوى منك ، أنانى تأخذ ولا تريد أن تعطى ، وتنسى أيادى البيضاء عليك !

ـ سعيت يوما إلى تزويجك من رجل ممتاز .

ـ أنت تعلم أننى لا أحب الرجال فلا تمن علىّ !

فتفكر قليلا ثم قال :

ـ أعرف مثلا أنهـا موظفة بالشـئون الاجتماعية ولكننى لا أدرى فى أى فرع هى ولا ما هو عنوانها ، وتتناهى إلى بعض أخبارها أحيانا عن طريق والدها نادل مقهى الانشراح بشارع الشيخ قمر .

فقالت باهتمام :

ـ سأنتظر مكالمة تليفونية منك .

وتبادلا نظرة طويلة ثم قال لها باسما :

ـ اشربى كأسك يا عزيزتى !

— ٣٥ —

الحياة تظلها سحب دكناء من القلق والمخاوف الصامتة . بذلك شعر مرزوق أنور . وفتنة تشاركه مشاعره وإن تظاهرت بغير ذلك . والاستمتاع بمظاهر الحياة البراقة المحفوف بالضحكات الرنانة وقرع الأنخاب لا يغير من الحقيقة شيئا . وكلما زادت المجاملات الناعمة زاد الحذر والتوجس ، وتلوت فى مكامنها كالديدان . وقال لها مرزوق يوما :

ـ ها هو موسم التعاقدات قد انتهى ولم نظفر بعقد واحد !

فقالت باستهانة :

ـ ليكن عام إجازة .

وكان يقرأ قلبها ويسمع ما يقال فى الوسط فقال :

ـ لا يمكن أن تسير الأمور هكذا .

فقالت بإصرار :

ـ فلتسر كما تشاء .

هـذا عناد المعركة لا الحب . ومن يدرينى إن كان للحب وجود إلا كقشرة لنواة المعركة الصلبة . الشخص الذى أحبته لم يعد له وجود . قال :

ـ لا يجوز أن ننتظر حتى نفلس معا .

ـ أنت كثير المخاوف ، والدنيا أفضل بكثير مما تتصور .
ـ أرجو ألا ترفضى عملا بسببى مستقبلا ..
ـ حتى لو كان مع أحمد رضوان ؟
ـ ولو كان مع أحمد رضوان .
ـ ولكننى مصممة !
فهتف بيأس :
ـ إنى أرفض ..
ـ اتقبل أى دور ثانوى ؟
ـ لن يكون أفضل من الالتحاق بوظيفة عادية .
فانزعجت وقالت :
ـ صارحنى بما فى قلبك .
ـ أود أن تعملى فى حقلك وأن أعمل فى حقلى الأول .
فأحاطت عنقه بذراعيها وقبلت خده وقالت :
ـ أنت ضحية حبى !
فقال وهو يدارى استياءه :
ـ لا مكان للعطف هنا !
فقالت بعتاب :
ـ ولكننى أحبك أولا وأخيرا .
فقبل خدها أيضا وقال :
ـ أصغى إلى ، لقد لفظت نفسى الفن ..
فحولت وجهها عنه فى تأثر بالغ فقال :
ـ لم يعد يهمنى فى شىء .

وصمتت قليلا ثم قالت :
ـ ما يهم حقا هو حبنا !
ـ من الجنون أن نزحف إذا كان بوسعنا أن نحلق !
ـ ماذا تعنى ؟
فلم ينبس . أطبق فكيه فتجلت قسوته الكاذبة . قالت :
ـ ما أكثر وساوسك !
فابتسم وقال :
ـ حذار من العطف !
فهتفت بحدة :
ـ لا تردد هذه الكلمة !
ـ سمعا وطاعة ..
وهى تتنهد :
ـ ما أتعس المواقف التى ليس لها حل .
ـ ولكن لكل موقف مهما تعقد حلا .
ـ على حساب الكرامة أو السعادة أو الاثنتين معا .
ـ هو خير من الجمود الذى يشل الإرادة .
ـ لا أوافقك .
فقال بضجر :
ـ علينا أن نسلم بأن السعادة التى حلمنا بهـا لم تتحقق كما حلمنا بها !
فصاحت بنبرة منذرة بالبكاء :
ـ أنت تهيننى !

ـ كلامى لا يتضمن أى إهانة .

ـ هذا ظنك !

فقال بأسف :

ـ أردنا أن نركب فىجسمنا المشترك جناحا فانقلب عكازا !

فقالت بحدة :

ـ ما أردت إلا أن أتزوج من الرجل الذى أحبه .

فقبلها بطريقة آلية وقال :

ـ تقبلى اعتذارى .

ثم قام وهو يقول :

ـ سأتمشى فى الخارج قليلا .

ـ فى هذه الساعة من الليل ؟

فقال وهو يمضى :

ـ فى هذه الساعة يعتبر المشى دواء .

— ٣٦ —

كانوا يدخنون فى سكون الليل يظلهم صمت مريح . حسنى حجازى يناجى الدخان الذى ينفثه بتمهل وانسجام ، وعبده بدران يدخن سيجارة ، كذلك عشماوى وهو قابع على كثب من دفء النصبة ، وفى الخارج ترامت أصوات المنشدين فى مولد سيدى البيومى . وجاء بياع الفلافل يحمل رغيفا محشوا تتدلى من أطرافه بعض عيدان البقدونس فأعطاه لعشماوى ، ووقف ينتظر النقود والآخر يلتقطها من علبة صفيح ببصره الأعمش . وفى فترة الانتظار قال له بياع الفلافل :

— تسلل رجالنا أمس إلى خطوطهم فدمروها ..

فهز عشماوى رأسه باعتزاز فعاد الرجل يقول :

— وسيعقب ذلك زحف الجيش !

فقال عشماوى وهو يعطيه القروش :

— ولا تنس هجمات طياراتنا ، جاء دورنا ..

ذهب الرجل راضيا . ومضى عشماوى يتناول طعامه ويتمطق بصوت مسموع تخللته قرقرة النارجيلة . والتفت عشماوى نحو حسنى حجازى وقال :

ـ جاءوا له بعربة ذات ثلاث عجلات يقتعدها ويسيرها بيديه ولكنه لا يخرج بمفرده بعيدا ..

لم يدرك حسنى حجازى عم يتحدث بادىء الأمر ، ثم تذكر حكاية جاره البطل الذى بترت ساقاه فقال :

ـ عظيم .. عظيم ..

وسأله عبده بدران :

ـ هل يمكن أن يتزوج يا عشماوى ؟

ـ يمكن ، علمت ذلك من جدته !

فقال حسنى حجازى :

ـ زوجه تكسبه ثوابا ، الإنسان يعتـــاد أى شىء ولكنه لا يطيق الوحدة ..

فقال عم عبده :

ـ إبراهيم يواجه الحياة بعزيمة ونجاح .

فقال عشماوى :

ـ ابنك متعلم وذلك ميزة كبيرة .

وبصراحته الخشـــنة راح يقارن بين العمى وفقد الســاقين ثم تأوه قائلا :

ـ فى شـــبابى كنت إذا اخترقت طريقـــا يختفى اليهود من جوانبه ..

ولم يتمالك حسنى نفسه فضحك حتى سعل . وعادوا إلى

الصمت فترامى إليهم مرة أخرى صوت المنشدين . وهز عشماوى رأسه طربا وقال :

ـ كنت يوما من مريدى البيومى ..

فقال له عبده بدران :

ـ طول عمرك مجرم ولا شأن لك بالطريقة ..

فقهقه العجوز ولم يعلق . وأقبل عم عبده نحو حسنى حجازى كمن ضاق بسره ، وكان الأستاذ يحسن قراءة أفكاره فسأله عما وراءه فقال :

ـ عليات جاءها ابن الحلال ..

فأبدى الرجل سروره متمتما :

ـ حقا !

ـ شاب موظف ، أخوه قاض كبير .

ـ على بركة الله .

وسكت الرجل متفكرا ومترددا ثم قال :

ـ قيل لى إنه كان مسجونا !

فتساءل عشماوى :

ـ هل يوظفون المساجين فى هذه الأيام ؟!

فاستدرك عم عبده قائلا :

ـ لأسباب سياسية ..

فقال حسنى مخاطبا عشماوى :

ـ إنها لا تمس الشرف يا عشماوى ..

وقال عم عبده :

ـ وإبراهيم موافق ، ولو كانت تمس الشـرف لمـا وافق أبدا ..

فقال عشماوى :

ـ وأنا كنت مسجونا سياسيا مرة .

فقال عبده :

ـ مرة !.. ثم عشرات المرات لا علاقة لها بالسياسة !

ـ إن أردت الحق فالمخدرات كالسياسة لا تمس الشرف !

ـ فلنسلم بذلك ، والضرب والاعتداء ؟!

فقال بفخار :

ـ فتونة ومجدعة !

فهتف ضاحكا :

ـ عليك اللعنة !

فقال عشماوى وهو يضرب كفا على كف :

ـ ماذا جرى للدنيا ؟!، نسـوان عرايا فى الشـوارع ، مساجين موظفون ، ويهود غزاة !

ورجعوا إلى الصمت وسماع الأناشيد ..

— ٣٧ —

كانت عليات تعمل بالوزارة عندما زارتها — بلا سابق معرفة — إحدى العاملات فى محل سمراء وجدى . أخبرتها أنها تعبت كثيرا قبل أن تعثر على مكانها ودعتها إلى مقابلة سمراء فى محلها بشارع شريف . انقبض قلب عليات . إنها لا تنسى فضل سمراء . وسبق أن زارتها فى المحل للشكر . ولاحظت أنها راغبة فى توثيق علاقتها بها بحرارة غير عادية وبأسلوب أثار فى نفسها الريب . لذلك لم تفكر فى زيارتها مرة أخرى . وانقبض قلبها إزاء دعوتها الجديدة — إنها حزمة من المتناقضات ، فهى نبيلة المظهر مترفعة عن المال ولكنها ذات خبرة فاجرة وعلاقة حميمة بذلك الدكتور التى تشبه عيادته مشرحة الجثث . ومضت ذاك المساء إلى حسنى حجازى وقصت عليه قصة الدعوة وجملة وساوسها . وارتبك الرجل بادىء الأمر ، ثم قال لها ببساطته المخيفة أحيانا :

— سمراء مغرمة بك !

ليس من الممكن أن تحمل قوله على محمل آخر رغم قابليته لأكثر من معنى فارتاعت حقا ، ولكنها تغابت وسألته :

— ماذا تعنى ؟

ـ أنت تفهمين تماما ما أعنيه .

فقطبت وزمت شفتيها فسألها برقة :

ـ ألم تكن لك تجربة فى ذلك ؟

فقالت بتقزز :

ـ كلا .

ـ إذن ستنشأ متاعب !

فتمتمت بخوف :

ـ متاعب ؟!

حدثها بإيجاز عن تاريخ سمراء وجدى وحاضرها ثم قال :

ـ إنها عالم من التعاسة والمغامرة والمتعة ..

فقالت بقلق :

ـ لن أذهب .

ثم بتوسل :

ـ أنت قادر على تجنيبى أى شر .

فقال لها بعطف :

ـ سأحاول ولكننى لست واثقا من النتيجة ..

ولم يتخل عن مسئوليته فدعا سمراء . قدم لها الشراب ممزوجا بمزاحه العذب وهى تراقبه طيلة الوقت بنظرة ثاقبة من خلال أهدابها الطويلة ، ثم قالت له بذكاء :

ـ ادخل فى الموضوع بلا لف !

فضحك عاليا وقال :

ـ صاحبتك ليست من أهل ذلك .

ـ لم تلبى دعوتى .
ـ جاءتنى أنا .
ـ صارحتها ؟
فقال برقة متوددة :
ـ ليست من أهـل ذلك وهى شارعة فى الزواج فاصرفى عنها النظر !
فاجتاحتها موجة عاتية من الهياج وهتفت :
ـ الخنزيرة !
ـ سمراء !!
ـ إنى إذا غضبت ؟
ـ لا داعى للغضب .
ـ دع تقدير ذلك لى أنا .
فداعب ذقنها بأصابعه وهو يسأل :
ـ وهل بالقوة يمارس الإنسان ما لا يحب ؟
ـ الخنزيرة ، هل نسيت ؟
ـ سمراء ، عليات عانت تجربة مريرة مثلك ، وهى شارعة الآن فى الزواج .
ـ لن تتزوج !
فهاله القرار وقال :
ـ لست قاسية ولا شريرة .
ـ إذن فأنت لم تعرفنى بعد .
ـ ولكن ماذا تنوين يا عزيزتى ؟

ـ سأطلع خطيبها على حقيقتها .

فهتف :

ـ لا .

ـ بلى .

ـ لا أصدق .

ـ سوف ترى .

فأسكتته الهزيمة مليا ثم قال :

ـ لقد تركت معذبك الأول يمرح بلا عقاب !

ـ كنت غرة .

وتحول حسنى عنها فى يأس ومضى نحو البار .

ـ ٣٨ ـ

اختفى مرزوق رجب فلم يعثر له أحد على أثر . فعل فعلته واختفى . قضى على نفسه بحبس شبه انفرادى فى بنسيون بحلوان . ومن محبسه تابع أخباره فى المجلات الفنية . أخبار طريفة حقا ، مرزوق يهرب من بيت الزوجية ويرسل إلى فتنة ناضر وثيقة الطلاق ورسالة مؤثرة ، فتنة تنهار عصبيا ويعودها الأطباء ، فتنة تبحث عن مطلقها فى مظانة فلا تقف له على أثر . وتمضى فترة تخفت بعدها الأصوات وتنداح الحادثة فى خضم

الحادثات . وتمضى فترة أخرى ثم ينشر خبر عن قبول فتنة العمل فى فيلم جديد من إخراج أحمد رضوان . وقال مرزوق لنفسه إنه كالميت ولكن أتيح له مالم يتح لميت من قبل وهو أن يشهد ما خلفه وراءه من وجود وعدم . وقال أيضا بأنه لم يكن أمامه إلا احدى اثنتين ، فإما حياة كلب أمين أو قواد . ولما استقر كل شيء فى موضعه رجع الى أهله وقرر السعى إلى الالتحاق بوظيفة .

وما تدرى عليات يوما — وهى فى مكتبها — إلا وهو يفاجئها بزيارة . تطلعت إلى وجهه نصف دقيقة كأنما هى فى شك من هويته . جرحه ذلك حتى أدماه . وقال لها :

— لم يكن مفر من حضورى .

ولم تفهم مراده ، ووضح له أنها برمة بزيارته ، ولكنه قال :

— أود أن أعتذر لأستطيع مواصلة الحياة .

فتمالكت مشاعرها وقالت :

— لا أهمية لذلك .

جلس بدلا من ان يذهب وقال :

— فلنتناول غداءنا معا لأقول كلمتين .

فقالت ببرود :

— لا معنى لذلك ألبتة .

— إنى مصر .

ولمست فيه حالة مخلخلة تقتضى الملاينة فوافقت . ذهبا إلى

الكورسال القديم فتناولا غداء بلا استطعام ثم طلب قهوة ، وأشار إلى وجهه وهو يقول :

ــ هذا ما آل اليه حالى .

فمسحت بإرادتها أى ظل للتعبير وتمتمت :

ــ سوء حظ حقا ولكن يمكن قهره والانتصار عليه .

ــ شكرا .

ــ لا داعى لليأس مطلقا ، تذكر مثال أخى إبراهيم .

فكرر شكرها . وشعر بمناعة تطوق روحها كالحصن فجعل يفكر صامتا ثم قال :

ــ لا شك أنك غاضبة على .

فقالت ببساطة صلبة :

ــ مضى ذلك وانقضى .

فقال باسما بسمة لا معنى لها :

ــ ذلك أدهى وأمر .

فلاذت بالصمت ، فقال :

ــ نرتكب أحيانا جرائم تحت سيطرة جنون لا معنى له .

فقالت معترضة :

ــ بل له معنى .

فقال بلهجة تعلمها من التمثيل رغم صدقه .

ــ قلت لنفسى لعل ما نالنى من عقاب يشفع لى فى الغفران .

ــ لا أدرى عم تتكلم .

فتردد مليا ثم تساءل :

ـــ هل أطمع فى غفرانك ؟

ـــ لا أدرى عم تسأل .

ـــ لكنه واضح .

ـــ لم يعد لذلك أهمية .

ـــ ولكنه بالنسبة إلى هو كل شىء .

ـــ أكرر بأنه لم يعد لذلك أهمية .

فالتمعت عيناه ببريق أمل وقال :

ـــ لعله يفتح لنا صفحة جديدة ؟

فقالت بحزم :

ـــ أى صفحة جديدة ؟

ـــ لكنك تفهمين قصدى تماما .

فقالت بنبرة قاطعة :

ـــ لا تضيع وقتك سدى .

ـــ أصغى إلى ..

ـــ أرفض مجرد التفكير فى ذلك .

ـــ لننتظر حتى يهدأ غضبك .

ـــ لست غاضبة ، صدقنى ، ولكنى أستعد لصفحة جديدة أخرى .

وأرته دبلة خطوبتها ، فتمتم :

ـــ حقا ؟

ـــ سأتزوج فى وقت قريب .

وساد الصمت حتى تساءل :

ـــ أهو رأى نهائى ؟
ـــ طبعا .
وقامت وهى تقول :
ـــ آن لى أن أذهب .
ومضت وحدها . وجدت فى قلبها ارتياحا شاملا وشعورا بالتحرر والنصر . ومن أمارات التوفيق أنها لم تضمر نحوه كراهية ولا حنقا ولا شماتة فقالت لنفسها : مات تماما ، فما أعجب ذلك .

ـــ ٣٩ ـــ

كانت عليات تجالس حامد فى دار الشاى الهنـــدى وإذا بسمراء وجدى تظهر فجأة فتقف عند طرف المنضدة بينهما . بهتت عليات واختفى الدم من وجهها . ودهش حامد وجعل يردد عينيه بينهما وهو لا يفهم شيئا . وهم بالكلام ولكنها سبقته فقالت مخاطبة عليات ورائحة خمر تتردد مع أنفاسها :
ـــ أنا عنيدة كما ترين ..
فتساءل حامد :
ـــ ما الخبر ؟
فقالت له سمراء :
ـــ ادعى أولا للجلوس كما يقضى الذوق .

ورأى فى موقف المرأة خطرا خفيا يهدد سلامتهما فقال :

ــ ولكنى لم أتشرف بمعرفتك .

فجلست وهى تقول متحدية :

ــ ها أنا أجلس بلا استئذان .

وضحكت ضـــحكة تعتبر مزعجة فى وقار السكون فقال حامد :

ــ تصرف حضرتك غير لائق ..

فقالت ساخرة :

ــ ولكن خطيبتك تعرفنى وقد جئت لأشكوها إليك .

فقال متأثرا بتضعضع عليات :

ــ ما زلت أعتبر تصرفك غير لائق .

فتجاهلت احتجاجه وقالت :

ــ أشكو إليك فتاتك فقد قدمت لها خدمة لا تقدر بمال فلم أنل منها إلا الجحود ..

همت عليات بصفعها ولكنها خافت من تفجر مضاعفات مجهولة ، جبنت فعجزت حتى عن الكلام وتساءل حامد بغضب :

ــ ماذا تريدين ؟

فقالت سمراء بتحد فاجر :

ــ تكلم أولا عن الخدمة وسأترك لك تقدير الثمن .

تمتمت عليات :

ــ مجرمة ، أنت مجرمة ..

فضحكت سمراء بقسوة وقالت :

ــ الله يسامحك .

فقال حامد بحنق :

ــ من فضلك ، أنا لا أسمح .

فقاطعته بقحة :

ــ تصور فتاة من أسرة شعبية ، اضطربت أحشاؤها بجنين سهوا وهى ..

فقاطعها بغضب :

ــ اذهبى من فضلك .

فواصلت حديثها :

ــ كيف تتصور بؤسها ؟ ! ، وكيف تقدر صنيع من يخلصها من الجنين ويرد إليها شرفها .

وجعل حامد يشير إليها بأصبعه مهددا وقد أعجزته انفعالاته عن النطق ، ثم قال :

ــ من الأفضل لك أن تذهبى .

ــ تهددنى ؟

ــ نعم .

فسألت عليات متهكمة :

ــ ما رأيك يا عليات ؟

لم تنبس عليات . وغلب الغضب والانفعال حامد فخرس . واربد وجهه بألوان قاتمة .

وضح أن عاصفة عاتيــة اجتاحته . وآمنت سمراء بأنها أصابت الهدف وأنها أنهت مهمتها على خير وجه . وهمت بالقيام

تحت تأثير خوف، طارىء . ولكن حامد اجتاز أزمته . كبح انفعالاته . مرق منها باردا صلبا عنيدا . سأل المرأة :

ـ أأنت التى قمت بتلك الخدمة ؟

فهزت رأسها بالإيجاب فسألها متحديا :

ـ لعليات ؟

فهزت رأسها مرة أخرى ، فقال وقد سيطر على أعصابه تماما :

ـ أنا مدين لك بالشكر ، أى ثمن تطلبين ؟

فتفحصته باهتمام لترى لأى درجة هو جاد أو غاضب ، فعاد يسألها بهدوء :

ـ ماذا تطلبين ؟

فداخلها اضطراب وحيرة فقال :

ـ يبدو أنك لا تريدين شيئا ، وعلى ذلك فأرجو أن تخلى لنا الجو لنواصل حديثنا !

وقامت متعثرة بالحيرة ثم مضت فى عصبية .

أسندت عليات رأسها إلى يدها وأغمضت عينيها فى إعياء موشكة على الانهيار الكامل .

ونظر إليها فى صمت وحزن . وشعر بالعاصفة فى قلبها فمال نحوها بعطف وقال :

ـ أقترح أن نسير فى الهواء الطلق .

رفعت رأسها وقالت باستسلام يائس :

ـ حامد ..

فقاطعها بلطف :

ـ لا داعى للكلام ، نحن فى حاجة الى الهواء الطلق .

ـ ٤٠ ـ

كان حسنى حجازى يعانى قلقا فى باطنه بخلاف عادته فى مجلس الليل الهادىء بالانشراح . أطلق كامن قلقه فى النارجيلة فمضى يأخذ أنفاسا متتابعة حتى اشتعلت الجمرات واحترق التبغ نافثا رائحة فظة . وتوقع طيلة الوقت أن يروح عم عبده بدران عن حزنه فيعلنه بفسخ خطوبة عليات . وها هو يقف مستندا إلى غطاء الجدار الخشبى ، يدخن سيجارة ، ونظرته الثقيلة المعتمة ثابتة كأنه موشك على النعاس . لعله يتحين الفرصة ليبوح بهمه ، وعند ذاك سيجد هو نفسه فى صميم مأساة لأول مرة . وكان عشماوى مقرفصا قرب النصبة ، لا يثرثر كعادته ، لو عكة برد ألمت به ، فبدا كعجوز يحتضر . وتجنب النظر ناحية عم عبده . وشم الرجل رائحة التبغ المحترق فاقترب قائلا :

ـ هل أبلل لك التبغ ؟

فانتبه حسنى لمعاملته العصبية للنارجيلة وقال له :

ـ غيره ..

ومضى الرجل بالنارجيلة فجدد التبغ ثم رجع بها بتبغ جديد كسبيكة ذهبية . وقال :

ــ زارنا مرزوق أنور مع سنية وإبراهيم !

فآنس حسنى خيرا وقال بحماس مفاجىء :

ــ يا له من جرىء !

ــ واعتذر ، وهنأنى على خطوبة عليات الجديدة ..

ــ المسامح كريم .

ــ وجد وظيفة فى مؤسسة النقل وسيكمل تعليمه للحصول على شهادة بعد الليسانس .

فقال حسنى وهو يوغل فى الارتياح :

ــ جميل أن يجدد الإنسان حياته ..

ــ وأصبح أمله الأول والأخير أن تتاح له الهجرة يوما ما .

ــ الهجرة موضة هذه الأيام الغريبة .

وقال لنفسه إن عليات بخير . وأن سهم سمراء قد طاش . وشعر بامتنان نحو العقليات التى تتجدد وتتجاوز الزمن . وتشجع فسأله .

ــ وما أخبار عروستنا ؟

فقال عم عبده :

ــ الخطيب يرغب فى الزواج فى أقرب فرصة .

ــ على خيرة الله !

فقال الرجل بأسف :

ــ لا أستطيع أن أقدم لها شيئا ذا بال .

ـ لا أهمية لذلك .

وترامت إليه حركة عند الباب . التفت فرأى سمراء وجدى واقفة كتمثال . نظر إليها عم عبده أيضا بدهشة . ورفع عشماوى رأسه وضيق عينيه ثم فغر فاه . ارتج قلب حسنى وقف شعره . وتمتم وهو لا يدرى :

ـ غير معقول !

ألقت عليه نظرة باردة مهددة ثم حولت عنه رأسها بتحد . نظرت إلى عم بدران وتساءلت :

ـ عم عبده بدران ؟

ذهل الرجل . أقبل نحوها ملبيا فى أدب ، ومتأثرا غاية التأثر بمظهرها الأنيق الفاخر ، ثم قال :

ـ أفندم ؟

مضت إلى ركن المقهى الأقصى فتبعها على الفور . شدت إليها الأبصار . خمن حسنى حجازى ما وراء مجيئها بفزع . وتذكر وهو يختنق أنها استدلت على المكان بإرشاداته التى وردت ضمن حديثه بلا قصد . إنه محور الرحى التى تطحن مجموعة من البشر لم يكن لها طيلة حياته إلا المودة . وثمة شر يوشك أن يحيق بالجميع ولكن بأى حكمة يمكن دفعه ؟ . التدخل من ناحيته يعنى افتضاح أمره ، وسيؤدى فى النهاية إلى هتك الستر عن البيت السحرى . ولكن هل ينتفى الخطر إذا التزم موقف المشاهد ؟ ! ، وتملص من الشلل أو هكذا خيل إليه فتح فاه وقال محذرا :

ــ إنها امرأة مجنونة ومخمورة !

ولكن أحداً لم يسمعه . لم يخرج الصوت من فيه . خذلته قواه فاحتواه العجز . لم تتحول عيناه عنهما . أرهف السمع ولكنه لم يسمع حرفا مما يقال . المرأة تهمس والرجل يصغى باهتمام شديد . وعشماوى ينظر ويصغى ولكن دون جدوى . وتأرجح المجلس بحسنى حجـازى وغاص فى باطن الأرض . وطار عشه السحرى فى الهواء على أجنحة الزبانية . ركز بصره على وجه عم عبده بدران . ها هو يصغى وتتحرك شفتاه أحيانا . وها هى نظرته الثقيلة تزداد قتامة . ها هو يقطب ويجتاح وجهه موجة سوداء . تراجع رأسه إلى الوراء كأنما تلقى لكمة ثقيلة . سقطت السيجارة من يده . قدحت عيناه شررا . ندت عنه آهة ذبيحة محشرجة . ترنح كالثمل . وفجأة انقض على المرأة فقبض على عنقها بكلتا يديه وشـــد عليها بكل قوته . وفزع حسنى فصاح :

ــ لا ..

قام كالمجنون فارتطمت ركبته بالنارجيلة فألقت بها على الأرض وقام عشماوى وهو يتساءل :

ــ ماذا جرى !

هرعا نحو الرجل وحسنى يتوسل إليه :

ــ انتبه لنفسك يا عم عبده ..

ولكن الرجل لم يفك قبضتيه الفولاذيتين حتى كانت المرأة جثة هامدة ..

— ٤١ —

ـ هل خنقت هذه المرأة ؟

ـ نعم .

ـ لماذا خنقتها ؟

ـ ... ...

ـ لماذا خنقتها ؟

ـ ... ...

ـ ما علاقتك بها ؟

ـ لا أعرفها .

ـ أتقول إنك لا تعرفها ؟

ـ لم أرها قبل هذه الساعة المشئومة .

ـ فلماذا خنقتها ؟

ـ ... ...

ـ خنقتها بلا سبب ؟

ـ ... ...

ـ ماذا قالت لك ؟

ـ ... ...

ـ الصمت معناه أنك تجود بعنقك لحبل المشنقة .

ـ ... ...

وأصر عم عبده بدران على الصمت .

ومن خلال شهادة عشماوى تجسدت صورة لظهور سمراء المفاجىء ، وتطلعها إلى عم عبده بدران وهى تتساءل « عم عبده بدران ؟ » وقول الأستاذ حسنى حجازى « غير معقول » ، ثم ذهاب المرأة وعم عبده إلى الركن الأقصى ، وحديثهما الذى لم يسمع منه حرف ، ثم الجريمة التى لم يستطع منعها أحد .

ـ أنادت عم عبده أم تساءلت عنه ؟

ـ نظرت إليه وتساءلت « عم عبده بدران » ؟

ـ إذن فلم تكن تعرفه ؟

ـ هو ذلك والله أعلم .

ـ أليس لديك فكرة عن كيفية مجيئها إليه ؟

ـ كلا .

ـ ولا عما دار بينهما من حديث ؟

ـ لم أسمع حرفا .

ـ ما مدى علمك عن علاقات صاحبك بالنساء ؟

ـ أستغفر الله ، إنه رجل طيب محمود السيرة ومسكين ..

ـ كيف تفسر ارتكابه للجريمة ؟

ـ لا أدرى ، إنه لم يقتل دجاجة فى حيـــاته ، والعلم عند الله .

ـ لم قال الأستاذ حسنى حجازى « غير معقول » ؟

ـ لا أدرى ، ولكن مجىء امرأة جميلة إلى الانشراح بعد منتصف الليل أمر غير معقول .

ـ لعله كان يعرفها من قبل ؟

ـ لم يتبادلا كلمة واحدة والعلم عند ربك .

ولم تأت شهادة الأستاذ حسنى حجازى بجديد عن مضمون الحادثة . وقد سأله المحقق :

ـ لم قلت : « غير معقول » ؟

ـ كان مجيئها إلى الانشراح فى تلك الساعة غير معقول .

ـ ألم ترها من قبل ؟

ـ بلى ، أعرفها معرفة عامة فهى صاحبة محل تجارى فى الشارع الذى أسكن فيه .

ـ هل لك أن تحدد لى نوع معرفتك بها ؟

ـ معرفة عابرة ليس إلا .

ـ ولكنكما لم تتبادلا ولا تحية عابرة ؟

ـ توقعت ذلك ولكنها تجاهلتنى تماما .

ـ ما تفسير ذلك فى نظرك ؟

ـ لعلها كانت مستغرقة بالمهمة التى ساقتها إلى المقهى .

ـ وماذا تعرف عما كان بينها وبين عم عبده ؟

ـ لا شىء ألبتة .

ـ وماذا دار بينهما ؟

ـ لم أسمع حرفا .

ـ ما تفسيرك للجريمة ؟

ــ إنها مذهلة ولا تفسير لها عندى .

ــ ما هى معلوماتك عن القتيل ؟

ــ لا علم لى بدخائلها .

ــ ما تفسيرك لصمت المتهم ؟

ــ إنه لغز ولا تفسير له عندى .

ــ ٤٢ ــ

رجال الشرطة شياطين . وهم يملكون جحيم الأرض وينفثون النيران فى الوجوه الشاحبة . يطرقون الأبواب بأيد أليفة كالأحباب ثم يفتحون البيوت كالأعاصير . ويقف الكهل بين أيديهم مجردا من الكرامة فيفترس الخوف قلبه ويوقن بأن الحياة وهم وضياع . وينقبون الجدران والحشيات والجيوب والخزائن فتتلاشى المسرات والأخيلة . عند ذاك يسير بينهم بلا أرجل ، بلا أعين ، بلا غد ، تطن فى أذنيه همهمة مغلفة باللعنات ، وإن يتبقى له رمق فسيردد بصوت محشرج : لقد انتهيت .

ــ اسمك ؟

ــ حسنى حجازى .

ــ عمرك ؟

ـ خمسون عاما .
ـ مهنتك ؟
ـ مصور سينمائى .
ـ أتعترف بأنك مالك هذه الأشرطة السينمائية ؟
ـ أجل .
ـ وأنك عرضتها على عشرات من البنات القاصرات ؟
ـ أجل .
ـ وأنك مارست معهن الجنس ؟
ـ أجل .
ـ ألا زلت عند قولك عن علاقتك العابرة بسمراء وجدى ؟
ـ كلا ، أعترف بأنها كانت صديقة قديمة .
ـ أكانت تجيئك بالبنات لمشاهدة أفلامك الجنسية ؟
ـ أجل .
ـ وما علاقتك بعليات ابنة المتهم عبده بدران ؟
ـ كانت صديقة .
ـ ألم تكن يوما عشيقتك أيضا ؟
ـ بلى .
ـ أتعترف بأنك يسرت لها الإجهاض ؟
ـ بلى .
ـ كيف ؟
ـ استعنت بسمراء وجدى .
ـ وهل اعترفت لك سمراء وجدى بأنها عشقت عليات ؟

ــ نعم .

ــ هل استعانت بك لتحقيق رغبتها الآثمة ؟

ــ نعم ولكنى حاولت صرفها عنها .

ــ أأرشدتها إلى مكان عم عبده بدران ؟

ــ سألتنى عن مكان عملها فقلت لها إنى أجهله بالتحديد وإن كنت أعرف أنها موظفة بالشئون ، وقلت لها أيضا إن علاقتها بى منقطعة تقريبا وأننى لا أعرف أخبارها إلا عرضا وفى مقهى الانشراح حيث يعمل والدها نادلا به ، ولم أكن أتصور أنها ستقوم بزيارتها الغريبة التى انتهت بمصرعها .

ــ ولم قامت بزيارتها الغريبة ؟

ــ كانت مصممه على الانتقــام من عليات لعدم إذعانها لرغبتها الآثمة ، فانقضت عليها وهى جالسة مع خطيبها وأخبرته على مسمع منها بحكاية الإجهاض ، ولما خاب المسعى ولم يصب الهدف ، أعادت التجربة مع الأب فقتلها .

ــ أتعتقد أن ذلك هو البــاعث الحقيقى وراء جريمــة عم عبده ؟

ــ ولا باعث غيره فى رأيى .

ــ ألديك أقوال أخرى ؟

ــ كلا .

كان حسنى حجازى ينطلق بسيارته فى أطراف المدينة عند الفجر . توقدت أعصابه فقضت على أى أمل فى النوم . وطاردته أشباح التخيلات طيلة الوقت . ستجرى التجريات حول سمراء

وجدى وستكشف عاجلا عن عالم حافل بالجنون والغرائب . إنه خبير بهذه الأمور . سرعان ما يعرف كل شىء . وسيجر التحقيق العشرات من البنات والفتيات . وقريبا تجتاح العاصفه العاتية عشه السحرى السعيد ويكبله القيد الحديدى . ماذا يوجد فى بيت سمراء وجدى من صـــور وأرقام تليفونات وأسماء ، ترى هل تدون مغامراتها فى مذكرات ؟ . هل يدعى إلى التحقيق ؟ . هل يزج به فى السجن ؟ . هل ينتحر ؟ هل من مخرج ؟ .

— ٤٣ —

اجتمعت عليات وحامد فى دار الشـــاى الهندى . كانت منهوكة الأعصاب دامية العينين . واستعان هو بقواه الكامنة ليواجه الموقف ولكنه كان يعيش بوجدانه فى جو ملىء بالمخاوف المجهولة . وجعلت تردد :

ـــ أبى .. أبى .. يجب إنقاذه .

هذا هو المأمول حقا ولكن كيف ؟ . قالت مصممة :

ـــ بأى ثمن .

ـــ سنبذل ما نستطيع وفوق ما نستطيع .

ـــ نحن نعرف كل شىء .

ـ أجل ، وهو مصر على الصمت صونا لسمعتك .

فقالت وهى تكتم انتحابها :

ـ لن أتخلى عنه .

ـ لن نتركه لينال عقوبة رهيبة لا يستحقها ..

فرنت إليه بنظرة دامعة وقالت :

ـ ذاك يعنى أن نشهد بما نعلم .

ـ لا مفر من ذلك .

ـ ولكن هل يصدقوننا ؟

ـ من رأى منى أن نعهد بالقضـية إلى الأستاذ حسن حمودة وأن نشاوره فى الأمر قبل أن ندلى بشهادتنا .

ـ طيب .

ـ فالطريق واضح .

فعضت على شفتيها وتمتمت :

ـ سيعلن السر على الملأ .

ـ أجل .

ـ وستنشأ مصاعب ومتاعب .

فقال بإشفاق :

ـ ربما .

ـ إنى أضحى لإنقاذ أبى ولكننى سأجرك معى ..

فقال محتجا :

ـ لا أوافق على طريقتك فى التفكير .

ـ الحق أنى لا أريد أن أحملك فوق ما تستطيع .

وكان قلبه ينقبض حيال العواقب المتوقعة ولكنه قال :

ـ هذا شأنى أنا .

فقالت وهى تخفض رأسها :

ـ أنت فى حل من ..

فقاطعها بحزم :

ـ عليات ! ، ما هذا الهراء !

استجمع إرادته ليسحق تردده . غاص قلبه فى هاوية . سخر من مخاوفه واحتقرها .

قذف بنفسه فى تصميم صلب . قال :

ـ لن أتخلى عنك .

— ٤٤ —

لأول مرة تغرق الحجرة فى كآبة شـاملة . وكان حسنى حجازى وعليات يجلسان متقابلين ومتقاربين يتبادلان نظرات جافة باردة كنظرات أصنام الآلهة والحيوانات فوق الأرفف . ولأول مرة تتخلى عن الرجل روح الدعابة والشمول فتطحنه أشياء مجهولة تطبق على الحجرة من عالم مجهول . قال لها :

ـ سألت عنك فى كل مكان .

فقالت بنبرات ميتة :

ــ كنت قادمة بنفسى على أى حال .

نفذت إجابتها إلى أعماق روحه فقال بقلق :

ــ دائما فى خدمتك .

ــ نصحت أن أوكل الأستاذ حسن حمودة المحامى .

فضغط حسنى على جناحى أنفه بأصبعيه متأملا ولكنه قال -

ــ إنه حجة فى الجنايات !

فانخفض صوتها قليلا وهى تقول :

ــ يقال إن أتعابه باهظة !

فتنهد بارتياح وقال :

ــ ستجدين تحت أمرك ما يلزمك .

ــ لا أدرى كيف أشكرك .

فتناول يدها بين يديه وتساءل :

ــ عليات ، ألم أكن دائما نعم الصديق ؟

فأحنت رأسها بالإيجاب . انحدرت من عينيها دمعة فاستقرت فوق ركبتها . قال :

ــ لى عندك رجاء .

ــ ما هو ؟

فسكت دقيقة كاملة ثم قال :

ــ ألا تذكرى اسمى سواء عند المحامى أم فى التحقيق ..

فقالت وهى تجفف عينيها :

ــ لا أهمية لذلك فيما أظن ؟

فقال وبهجة من الأمل تشيع فى نفسه :

ــ عين الصــواب ، فهو لن يقدم فائدة ولكنه سيضرنى كما تعلمين .

ــ لن أفعل ما يضرك .

ــ شكرا ، ممكن أن تقولى إنك عرفت سمراء فى محلها التجارى ، وأنها حاولت أن تنشىء معك علاقة شاذة فرفضت ، ومن ثم أرادت أن تنتقم منك إلخ .. إلخ .

ــ هى الحقيقة فى جوهرها .

فقبل يدها وقال :

ــ توكلى على الله ولا تحملى للنقود هما .

ولمدة دقائق ــ عقب ذهابها ــ شعر بأن الهم قد انجاب عن قلبه وبأن تيار الحياة يتدفق من قلبه نشيطا مهللا . أنجوت حقا ؟ . إن أكن نجوت فلن يمسسنى الضر مدى الحياة . ولكن لم تدم تلك الحال طويلا . وئدت بلا إنذار . عاد عقله يعمل ويفرز سمومه المنطقية . ما أهمية وعد عليات ؟ . وما قدرتها على الإفلات من حصار الاستجوابات ؟ . وهل تجدى شهادتها إن لم تدعم بشاهد عيان مثله كان محور الأحداث ومحركها ؟ . وهناك أيضا التحريات التى تنشط فى كل مكان الآن مثل الذئاب الجائعة .. لا .. لا .. لا أمان . عليه أن يهرب . فى أول فرصة . ثمة وعد سابق بتصوير فيلم لبنانى فليطلب السفر فورا وقبل أن يذكر اسمه فى التحقيق . سيستقر فى لبنان إلى الأبد . لا حياة له فى هذا البلد .

الوداع يا مصر ..

— ٤٥ —

يا لها من مفاجأة . أحق تقع هذه الأمور فى الحياة ؟ . وأن يدعى — هو — للدفاع عن قاتل سمراء وجدى ؟ . نقل بصره بين عليات وحامد مخفيا انفعالاته وراء قناع بارد من التجرد . وقال :

— قرأت ما نشر عن الجريمة فى الصحف ففكرت طويلا فى سر صمت المتهم .

فقال حامد :

— نحن نعرف الأسرار كلها .

فقال الأستاذ بعجلة :

— معذرة ، احتفظ بها ، فإننى لم أقبل القضية بعد .

فقالت عليات :

— ولكنك ستقبلها طبعا ؟

آه . سمراء وجدى . ترى لم قتلها الرجل . لفضيحة ما ولا شك . وسوف يقتضى الدفاع عنه النبش فى ماضى الفتاة والكشف عن فضائحها والتشهير بها فهل يقوم هو بذلك ؟ . وهل يستبعد فى تلك الحال أن ينبرى شخص مجهول لهتك سره

المنطوى وتعرية الدور الفاضح الذى لعبه فى حياة الفتاة ؟ .

ولم يتردد فأجاب :

ــ آسف يا آنسة ، لا وقت عندى ألبتة ..

فهتفت عليات :

ــ ولكنك لن تتخلى عنا ؟

ــ الأمانة تقتضى أن أتخلى ولكنى سأعهد بها إلى زميل معروف لا يختلف فى تقديره اثنان !

ــ ولكننا قصدناك أنت !

فقال بلهجة مؤدبه ولكن نهائية :

ــ الأمانة وحدها التى تمنعنى .

وهمت عليات بالكلام فمال حامد نحوها قائلا :

ــ علينا أن نصـــدقه ونشكره ، إن هى إلا عثرات فى الطريق ، ولكنه بات ممهدا لما نأمله ..

ولدى انفراد حسن حمودة بنفسه تمزق قناع الهدوء الذى تخفى خلفه . غاص فى مقعده وراح ينظر إلى السقف الأبيض بعينين ذاهلتين . لاحت له مخاوف غريبة كأشباح راقصة . وركبه إحساس لا معقول بأنه مطارد . ووثب من مجلسه كأنما هو المسئول عن ضعفه وراح يتمشى فى الغرفة ويقول بصوت مرتفع ليطرد الأشباح :

ــ محض أوهام ، تاريخ ميت ، الميت لا يبعث !

وكره الوحدة فغادر المكتب . استقل سيارته وجرى بها على غير هدى ساعة ثم هفا قلبه إلى لقاء صفوت مرجان فوجهها

إلى شارع أحمد شوقي بلا ميعاد سابق . وجد الأستاذ منفردا فى القراندا بشخص غريب لم يره من قبل . هم بالانصراف ولكن صفوت دعاه إلى الجلوس فجلس وهو يسائل نفسه متى يستطيع أن يروح عن صدره ويفضى بانفعالاته إلى صديقه . وقام صفوت بالتعارف بين الرجلين . وقدم الغريب قائلا :

ـ أبو النصر الكبير من رجال المقاومة الفلسطينية .

فانفجر فى صدر حسن حمودة بركان من اللعنات . لم يكن من الذوق أن ينصرف فبقى على رغمه وهو يتلظى . وقال له صفوت :

ـ طبعا سمعت بقبولنا المبادرة الأمريكية ؟

فأجاب بفتور :

ـ أجل .

ـ كنا نناقشها .

فقال بلا مبالاة :

ـ معذرة ، سأشرب كأسا لأنى مرهق .

أما أبو النصر الكبير فقال يواصل حديثه الذى قطعه مقدم حسن حمودة :

ـ ولكن للمسألة وجها آخر ، فالقضية ممتدة فى الزمن وليست بقضية هذا الجيل وحده ، ولا بأس أن يتقرر فى لحظة زمانية ولضرورة أقوى منا مؤقتا التضحية بمجموعة باسلة من العرب فى سبيل صالح العرب ككل ، ولكن الكلمة النهائية

ستظل سرا مقدسا فى طوايا الغيب ، كما سيظل ميلادها رهنا بالإرادة ، فإما نموت موتا غير مأسوف علينا ، وإما نحيا حياة كريمة كما ينبغى لنا ..

تدفق الكلام من فيه هادرا كالموج .

وتابعه حسن حمودة بأعصاب متوترة ، عيناه مغمضتان ، وكأسه فى قبضته لم يبق بها إلا ثمالة .

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

		الطبعة الاولى			
مصر القديمة (مترجم عن الانجليزية)		١٩٣٢			
همس الجنون	مجموعة اقاصيص	١٩٣٨	الطبعة	السابعة	١٩٧٠
عبث الأقدار	قصة تاريخية	١٩٣٩	»	السادسة	١٩٦٩
رادوبيس	قصة تاريخية	١٩٤٣	»	السابعة	١٩٧١
كفاح طيبة	قصة تاريخية	١٩٤٤	»	السابعة	١٩٧٢
القاهرة الجديدة		١٩٤٥	»	الثامنة	١٩٧١
خان الخليلي		١٩٤٦	»	السابعة	١٩٧٢
زقاق المدق		١٩٤٧	»	السابعة	١٩٧٢
السراب		١٩٤٨	»	السابعة	١٩٧٠
بداية ونهاية		١٩٤٩	»	الثامنة	١٩٧٠
بين القصرين		١٩٥٦	»	التاسعة	١٩٧٢
قصر الشوق		١٩٥٧	»	الثامنة	١٩٧١
السكرية		١٩٥٧	»	السادسة	١٩٦٧
اللص والكلاب		١٩٦١	»	السادسة	١٩٧٢
السمان والخريف		١٩٦٢	»	الرابعة	١٩٦٧
دنيا الله	قصص قصيرة	١٩٦٣	»	الثانية	١٩٦٦
الطريق	رواية	١٩٦٤	»	الثالثة	١٩٦٧
بيت سيء السمعة	قصص قصيرة	١٩٦٥	»	الثالثة	١٩٧٢

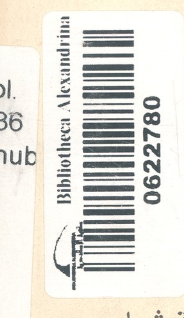
الطبعة الأولى

الشحاذ	رواية	١٩٦٥	الطبعة الثالثة	١٩٧٢
ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦	« الثالثة	١٩٦٧
ميرامار	رواية	١٩٦٧	« الثانية	١٩٧٠
خمارة القط الاسود	قصص قصيرة	١٩٦٩	« الثانية	١٩٧١
تحت المظلة	قصص قصيرة	١٩٦٩	« الثانية	١٩٧١
حكاية بلا بداية ولا نهاية	قصص قصيرة	١٩٧١		
شهر العسل	قصص قصيرة	١٩٧١		
المرايا	رواية	١٩٧٢		
الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣		

رقم الإيداع ٦٣٢٤

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن ٣٠ قرشا

دار مصر للطباعة